قُرَيش وَأُمَّة الإسْلام فى المدِينةِ

الدَّورُ الأوّل مِن الصّراع بَينَ قريش وَالإسلام

مِن الهجْرة إلى مَوقعة بَدر :

من بداية استقراره فى المدينة وشروعه فى إقامة أمة الإسلام ، كان رسول الله يعرف أن قضية جزيرة العرب وإدخالها فى الإسلام كانت قضية قريش وإدخالها فى الإسلام. لقد كانت الجزيرة تعج بالقبائل ما بين كبيرة وصغيرة ، كانت هناك قبائل كبرى تسكن مساحات شاسعة من الأرض وتتعدد بطونها وأفخاذها ، حتى لتكاد تكون شعوباً : هناك إلى شرقى الحجاز كانت غطفان وهوازن ، وكل منهما تعدل قريشاً عشرات المرات حجماً وعدداً ، وإلى شرقيهما كانت منازل تميم ، وهم البدو الخُلَّص ، وكانوا قبائل وبطوناً شتى ، ويصفهم ابن حزم بأنهم « قاعدة من أكبر قواعد العرب » . وإلى شمالهم على أطراف نجد الغربية كندة وغيرها من قبائل العالية ، ومنهم باهلة وسُلَيم ابن منصور ، وليث بن بكر بن عبد مناة ، وهلال بن عامر بن صعصعة ومن إليهم من بطون قيس عيلان ، وكانت تميم فى البداية تمتد حتى البحر ، ولكنها انحسرت إلى الداخل وحلَّ محلها عبد القيس وبكر وتغلب وغيرها ، وهم بدو أعراب ينتشرون على طول الطريق من الحجاز إلى العراق ، وإلى الشرق كانت منازل بكر وتغلب ثم عبد القيس .

وهذه القبائل التى ذكرناها كانت جماعات قوية فيها بيوت وأعداد ورجال سيغيِّرون وجه التاريخ بعد الإسلام . وكانت هناك كذلك طىء ولخم وجذام فى شمال وسط الجزيرة ، وبعضها من المجموعة التى تسمى باليمنية الأصل . وكانت قبائل قوية ذات خطر ، وهناك قبائل أخرى صغيرة الحجم ولكنها مرهوبة الجانب مثل عبس وذبيان ولحيان وغيرها كثير ، أما شمالى المدينة فكانت هناك جهينة وبقية

بطون قضاعة مثل بلى والقن وعذرة وخشين ، وكانت بطون قضاعة تمتد من الحجاز إلى الشام جماعاتٍ متوالية .

ووسط هذا البحر من قبائل وسط الجزيرة ، وشمالها ، عاشت قريش فى قاعدتها مكة ، وهى من أصغر قبائل الجزيرة ولكنها كما رأينا كانت أظهرها وأبعدها صيتاً وأكثرها صلة بمعظم القبائل وبالعالم الخارجى ، ومن هنا فقد كان رجالها أوسع العرب علماً وأبعدهم تأثيراً ، ولهذا فقد كان رسول الله ﷺ يعرف أن قريشاً إذا انضمت لأمة الإسلام تبعتها فى ذلك معظم قبائل شبه الجزيرة .

وبحلول رسول الله ﷺ فى المدينة تحولت جماعة المسلمين شيئاً فشيئاً وبسرعة لم يكن أحد يتصورها ، إلى أمة واحدة ذات عقيدة واحدة . ومثل أعلى واحد ، فأصبحت خلال العام الأول من الهجرة وحدةً دينية فكرية واجتماعية لم تعرف لها جزيرة العرب مثيلاً من قبل . وليس هنا مكان تفصيل كيف تم ذلك ، ولكن الذى يهمنا هنا هو النتيجة . كان هناك اليهود ومن لم يدخلوا الإسلام من أهل المدينة ، ولكن كتلة البلد وخِيرة رجالها دخلوا فى الإسلام ونهضوا بأمر أمته ، وتوالى نزول آيات القرآن تهديهم وتعلمهم وتنوِّر بصائرهم فأصبحوا فى أيسر الزمن أعلى أهل الجزيرة ثقافة وفكراً وأرفعهم روحاً معنوية .

ولم تكن المدينة قبل الإسلام مدينة واحدة ، بل كانت قرى منتشرة فى سهل المدينة مثل قُباء ويثرب وراتج والسُّنح وحُسَيكة ، فربط الإسلام بينها ودفع الناس إلى تعمير الغامر من الأرض وهو كان أغلب أرض سهل المدينة ، فتزايد عمران البلد وتزايد سكانها بالهجرة إليها . وأدخل الرسول صلوات الله عليه المؤاخاة بين المهاجرين من قريش وغيرهم وأهل المدينة ، وشرع معهم فى إنشاء الصحيفة ، وهى الكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ومن شاء الدخول فى حلف أمة الإسلام من يهود ومن كان نازلاً بالمدينة من قبائل جهينة وبطون قضاعة ، يبين فيه قواعد التعامل والتعاون بين الوحدات القبلية التى تؤلف الأمة ، ثم إن رسول الله كان يقوم فيها هادياً ومعلِّماً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه ، فكان بالفعل سراجاً منيراً ، خرج بهم من ظلمات الجاهلية وأنشأهم الإسلام نشأة أخرى . وفى نهاية العام الأول

للهجرة كانت المدينة قد أصبحت أقوى وحدة دينية وسياسية وفكرية واجتماعية فى شبه الجزيرة ، واتجهت إلى احتواء بقية الحجاز ومكة وقريش .

وقد أكدت معركة بدر (١٩ رمضان ٢ هـ - ١٥ مارس ٦٢٤م) مكانة المدينة فى الحجاز ، واتجهت أبصار قبائل شبه الجزيرة جميعاً نحو القوة الجديدة الصاعدة ، ولم تؤثر معركة أُحُد (١٠ رجب سنة ٣هـ / ٢٣ مارس ٦٢٤م) أثراً بعيداً فى صعود المدينة ، ولكن فشل الأحزاب فى دخول المدينة وارتدادهم عنها منهزمين فى (ذى القعدة سنة ٥هـ / إبريل ٦٢٧ م) حسم الأمور وأثبت أن أمة الإسلام فى المدينة أقوى قوة فى الجزيرة كلها ، وهبطت مكانة قريش وتدهورت مكانتها الاقتصادية نتيجة للحصار المضروب عليها .

ومن الواضح أن رسول الله ﷺ - عندما قامت أمة المدينة - رسم خطته كاملة للتغلب على قريش ، بمعنى أننا لا ينبغى أن ننظر إلى غزواته وسراياه واتفاقاته مع القبائل فى الحجاز وخارجه على أنها أعمال مفردة منفصل بعضها عن بعض ، بل كانت كلها حلقات من سلسلة واحدة أو سياسة واحدة وُضعت بإحكام حتى تنتهى حتماً بوضع قريش فى موضع لا تستطيع معه إلا التسليم أو الاستسلام . حقاً إنه يبدو لنا أن موقعة بدر قد نتجت عن تهور أبى جهل وأمثاله من القرشيين المبغضين للإسلام ورسوله وإصرارهم على تحدى المدينة ، والاحتفال بنجاة العير وتنبيه الأذهان إلى أن طريق التجارة مفتوح ، ولكن ذلك الاحتفال وخروج قريش بالقيان والدفوف وضربها خيامها خارج سهل بدر ، ونحرها الجُزر ، كل ذلك لم يَعْنِ أن طريق التجارة قد فُتح ، وأن مكة تستطيع أن تواصل تجارتها كما كانت قبلاً ، لأن عير أبى سفيان إذا كانت قد أفلتت فإن الطريق ظل مقفلاً ، والعير التالية كان لا بد أن تقع فى أيدى المسلمين إلا إذا رافقها جيش كبير ، وفى هذه الحالة كان لابد من وقوع صدام مسلح بين الجانبين ، وموقعة بدر كان لا بد أن تقع على أى حال ، إما فى التاريخ والمكان اللذين وقعت فيهما أو فى مكان وزمان آخرين . كانت لقاء محتوماً ولا مفر منه .

وكان لا بد أن تنتصر فيه أمة الإسلام لأنها خرجت إلى تلك الواقعة بسلاح جديد لم يكن يدخل فى حسبان قريش ، هو سلاح الإيمان والتفانى ووحدة الإيمان

والاستعداد وبيع النفس فى ميدان العقيدة والشرف ، وأساطين قريش الذين خرجوا إلى الميدان يختالون كبراً وثقة فى أنفسهم لم يكن لديهم شك فى أن النصر فى أيديهم ، ويتجلى لنا هذا مما يذكر على لسان عمير بن وهب الجُمَحى وأبى أسامة الجشمى ، وكانا فى جيش المشركين ، وكانا من أهل المعرفة بالحرب واحتمالاتها ، وكلام أبى أسامة الجشمى هنا أبلغ وأدل على طبيعة قوة المدينة التى كان على القرشيين لقاؤها ، قال بعد أن طاف حول جيش المسلمين من بعيد واستوثق من أنه لا كمين لهم ولا مدد.

قال يصف المسلمين : « والله ما رأيت جَلَداً ولا عدداً ، ولا حلْقة (سلاح كثير) ولا كراعاً ، لكن والله رأيت قوماً لا يريدون أن يؤبوا إلى أهليهم ، قوماً مستميتين ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، زرق العيون كأنهم الحصى تحت الحجف (= التروس)[1] وتلك هى الناحية التى لم يرها أبو جهل بنظرته الجاهلية الصرفة ، ولكن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس رآها ، وتوقع الهزيمة ونصح قريشاً بالعودة إلى المدينة ، ولكن أبا جهل أصر على اللقاء . والذى فات قريشاً ولم ينبه عليه مؤرخ ، هو أن قريشاً القبيلة الجاهلية سارت إلى بدر على طريقة الجاهليين : جحفل من الناس يسير بغير نظام معتمداً على المبارزات الفردية عند اللقاء . ففوجئت بأنها تلاقى جيشاً مدرباً نظامياً يقف رجاله صفوفاً متراصَّة يلى بعضها بعضاً . وقد دَرّب الرسول أمته على هذا الطراز الجديد من الحرب خلال المغازى والسرايا الثمانية التى سبقت معركة بدر .

وكل الغزوات والسرايا الثمانية السابقة على بدر من سَرِية سيف البحر ، إلى سرية نَخلة كانت كلها تؤدى إلى بدر ، ونَخلة بالذات كانت على أبواب مكة ومدخل حرمها ، وقد قصد رسول الله ﷺ من بعث عبد الله بن جحش وأصحابه إليها إلى إشعار قريش بأن مكة نفسها فى متناول المدينة ، وهو صلوات الله عليه لم يأمر عبد الله ابن جحش أميرها بالقتال ، ولكن القتال كان احتمالاً كبيراً جداً ، وواقد بن عبد الله ، أحد رجال سرية نخلة ، عندما فوّق سهمه إلى عمرو الحضرمى وقتله فى بداية الشهر الحرام مخالفاً بذلك أمر الرسول ، كان يشعر أنه لا يخالف بعمله هذا حتمية الظروف ،

(١) الواقدى ، مغازى ١/ ٦٢ .

فالقتال بين أمة الإسلام وقريش كان واقعاً لا محالة ، والمسألة مسألة وقت وظروف .

وكان رسول الله ﷺ يعرف ذلك معرفة تامة ، ثم لم تلبث أن نزلت الآيات التى أحلت القتال فى الشهر الحرام دفاعاً عن النفس ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) ﴾[1] والآية تدل على أن هناك حالة حرب قائمة دائمة بين المسلمين وبين من يصدون عن سبيل الله ويكفرون به ويصدون عن المسجد الحرام ويحولون بين المؤمنين وبينه .

الدَّور الثانى من الصِّراع بَين قريش وَالإسْلام

مِنْ بَدر إلى أحُد :

الذى يهمنا هنا هو أن قريشاً وجدت نفسها فى ظرف لم تكن تتوقعه قط : فطريق تجارتها مقطوعة ، ثم إن الكثير من قبائل الحجاز مالت إلى حلف المدينة أو وقفت على الحياد . وللمرة الأولى منذ أيام قُصى وقفت قريش وحدها ، فبمجرد استقراره فى المدينة عرف رسول الله كيف يجتذب جهينة إلى صفه ويجعلها من حلفائه فى الحجاز ، فقد كانت منازلها تمتد من ينبع إلى قرب تيماء ، واستشعرت قريش الخوف ، وبعد هزيمتها فى بدر وقَتْل الكثير من رؤسائها وكبار مَلئها ، وفى مقدمتهم أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، أحست قريش أن الدنيا من حولها تغيرت ، وفى هذه الظروف صار مصير قريش كله بين يدى أبى سفيان بن حرب .

وقد أحب أبو سفيان أن تشعر قريش بأن مِلاَك الأمر بيده فقام بغارة السَّوِيق (٥ذو الحجة سنة ٢هـ / ٣٠ مايو ٦٢٥) وهى غارة سريعة قُتِل فيها اثنان من الزراع خارج المدينة وعاد سريعاً ، وبلغ من سرعته فى العودة ، أن كان أصحابه يلقون جُرُب السَّويق (أى غرارات الدقيق) ليتخففوا منها ويستطيعوا العودة إلى مكة قبل أن

(١) البقرة ٢/ ٢١٧ .

يدركهم أهـل المدينة ، وما نحسب أن أبـا سفيان إلا أراد بهذه الغارة أن يؤكد بهـا رياسته ، مخافة أن يصير الأمر إلى رجل غيره من زعماء قريش ، فلا يستطيع قيادة الأمور فى الاتجاه الذى كان يتصور أنه الصحيح .

وبعد ذلك كانت سرية القَرَدَة ، والقردة على الطريق من مكة إلى العراق ، وكان هدفها قطع طريق التجارة العراقية على قريش ، وكان الذى فكر فى سلوك طريق العراق ثم الانحراف إلى الشام بعد خيبر ، لكى يتخلص من سيطرة المدينة على طريق الشام صفوان بن أمية ، ونص الواقدى هنا عظيم الأهمية والدلالة فنورده هنا بنصه ، وسنقسمه إلى فقرات على عادتنا فى مناقشة مثل هذا النص الذى نرى أنه جدير بالدراسة المتئدة :

١- حدثنى محمد بن الحسن بن أسامة بن زيد عن أهله قالوا : كانت قريش قد حَذِرت طريق الشام أن يسلكوها .

٢- وخافوا من رسول الله ﷺ وأصحابه ، وكانوا قوماً تجاراً .

٣- فقال صفوان بن أمية : إن محمداً وأصحابه قد عَوَّروا علينا متجرنا ، فما نرى كيف نصنع بأصحابه لا يبرحون الساحل .

٤- وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسلك .

٥- وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ، ونحن فى دارنا هذه ، ما لنا بها من نَفَاق (يريد ما لنا من سوق تَنْفَق فيه متاجرنا) إنما نزلناها على التجارة ، إلى الشام فى الصيف ، وفى الشتاء إلى أرض الحبشة .

٦- قال له الأسود بن عبد المطلب : فَنكِّب عن الساحل ، وخُذ طريق العراق .

٧- قال صفوان : لست بها عارفاً .

٨- قال أبو زمعة (الأسود بن عبد المطلب) : فأنا أدلك على أخبر دليل بها يسلكها وهو مغمض العينين إن شاء الله[1].

---

(١) عبارة إن شاء الله على لسان أبى زمعة بن عبد المطلب تبدو غريبة هنا : الواقدى ١/ ١٩٨ .

وكان هذا الدليل هو فرات بن حِبَّان العجلى . فاتفق صفوان مع هذا الرجل على أن يكون دليله على قافلة يخرج بها إلى الشام ، فيسلك طريق العراق حتى يخرج من منطقة المدينة فينثنى غرباً حتى يلقى أحد طرق الشام ويسلكه . وبالفعل أعد صفوان قافلة فيها فضة كثيرة . ويبدو أن قريشاً أرادت أن تشترى بذلك المال أزواداً تستعين بها على الحصار . وسلكت القافلة طريق ذات عِرق . فنُمى الخبر إلى محمد صلوات الله عليه فأسرع بانتداب زيد بن حارثة وإرساله فى مائة فارس أدركوا القافلة عند ذات قَرَد أو القَرَدَة على ذلك الطريق « وأفلت أعيان القوم ، ولكن المسلمين استولوا على البضائع وأسروا رجلين وقدموا بالعير على النبى ﷺ . فخمَّسها ، فكان الخمس يومئذ عشرين ألف درهم ، وقَسَّم ما بقى على أهل السرية ، وكان فى الأسرى فُرات بن حِبان (الدليل) فأتى به ، فقيل له : أسلم . إن تسلم نتركك من القتل . فأسلم فتركه من القتل »[1] .

وهذه السرية تغير الكثير من مفهوماتنا التقليدية عن مغازى رسول الله وسراياه ، فها نحن نرى أنها أدت فى مجموعها إلى ذلك الحين (قبل أُحُد) إلى سيطرة المسلمين تماماً على طريق التجارة المكية إلى الشام ثم العراق . ولولا أن رسول الله ﷺ سار فى مغازيه على خطة محكمة مرسومة مقدماً لما وصل فى الزمن القصير إلى إيقاف التجارة المكية ، فإن الأمر لم يكن مجرد إيقاف التجارة ، بل رمت الخطة كذلك إلى كسب قبائل الساحل إلى جانب المدينة وإخراجها من حلف مكة ، مما انتهى إلى حصرها على بلدها على النحو الذى وصفه صفوان بن أمية . وعندما أرادت قريش أن تتسلل إلى الشام عن طريق العراق بادر الرسول بإيقاف هذه الطريق أيضاً ، مما يدل على أن أمة المدينة كانت لها الأرصاد والعيون من أصدقائها والداخلين فى حلفها ، فكانت الأخبار تصل إلى رسول الله فى أقصر وقت فيبادر إلى العمل ، ويكون عمله حاسماً يوفى على الغاية المطلوبة .

وسرية القَرَدة وما وقع فيها تُرينا كيف أن غزوة أُحُد لم يكن منها مفر ، فقد كانت قريش أمام أحد خيارين ولا ثالث لهما : إما الاستسلام (ولم يكن أوانه قد آن بعد) أو خوض معركة أخرى هدفها تحطيم قوة المدينة وفتح طريق التجارة .

---

(١) الواقدى ، المغازى : ١/ ١٩٨ .

فلما عجزت قريش عن فتح طريق آخر للتجارة إلى الشمال والشمال الشرقى ، أدرك أبو سفيان أنه قد جاء وقت العمل . وكان هذا الرجل قد احتبس أموال العير التى نجا بها قبيل معركة بدر وجعلها فى دار الندوة لا يحركها ، وكان الكثير من أصحابها ممن قُتِل أو أُسِر فى بدر . فلما فشلت محاولة الذهاب إلى الشام اجتمع الباقون من ملأ قريش إلى أبى سفيان وطلبوا إليه التصرف فى تلك الأموال وعرضوا عليه أن يُعَد بها جيش يسير إلى المدينة ، وكان هذا ما يريده أبو سفيان ، ويشهد بذلك قوله :

« - وقد طابت أنفس قريش بذلك قالوا : نعم ، قال : فأنا أول من أجاب إلى ذلك ، وبنو عبد مناف معى ، فأنا والله الموتور الثائر . قد قُتِل ابنى حنظلة ببدر وأشراف قومى » . واتفق رأيهم على أن تباع المتاجر التى كانت فى العير وترد رؤوس الأموال إلى أصحابها وتستخدم الأرباح فى تجهيز الجيش . ولم تكن الأرباح قليلة فقد كان المكيون يربحون للدينار ديناراً ، فإذا كانت هذه العير ثمنها خمسون ألفاً كما تقول النصوص فإن أرباحها كانت خمسين ألفاً من الذهب العين « بحسب نص الواقدى » ، وأخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا متعة كل ما كان لهم في العير . فهذا يبين أن القوم ردوا رؤوس الأموال إلى أصحابها من الضعفاء واستخدموا الباقى مع الربح في تجهيز العير ، وفيهم نزلت : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾[1] الآية .

وهذا التصرف من أبى سفيان يدل على فكر سليم وتدبير صحيح ، فقد كان الرجل يعرف أنه مقبل على معركة حاسمة وأنه محتاج فيها إلى أموال ، فتحصلت له الأموال للسلاح والعدة . فلما استوثق أبو سفيان من عزيمة قريش على المسير واطمأن إلى أن الرياسة له ، أخذ يشاور ملأ قريش فى أمر الحملة ، ولدينا بيان بمن كان مع أبى سفيان فى هذا التدبير ، وهم يمثلون معظم بيوت قريش ، وانضم إليهم بنو عبد مناة ابن كنانة بن خُزيمة والأحابيش وثقيف . وبعثت قريش ناساً إلى قبائل العرب لدعوتها إلى الاشتراك فى حرب المدينة ، وتحمس رجالها حتى قرروا أن يخرجوا بنسائهم لِيُحفِظنهم ويذكِّرْنهم قتلى بدر وقال : « فإن العهد حديث ونحن قوم

(١) الأنفال : ٣٦ .

مستميتون لا نريد أن نرجع إلى دارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه »[1].

وهذا كلام صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جُمح ، وكان هو الشخصية الثانية فى قريش يومذاك ... وخرجت قريش وأحلافها فى ثلاثة آلاف مقاتل معهم ٣٠٠٠ بعير وفيهم ٧٠٠ دارع و٢٠٠ فارس ، وهذا جيش ضخم نظن أنه أكبر قوة عسكرية عرفها العرب حتى ذلك الحين ، ومثل ذلك الجيش الضخم يحتاج إلى قيادة وإدارة ، وكانت للجيش ثلاثة ألوية .. لواء لقريش ولواء للأحابيش ولواء لبقية من انضم إلى قريش غير هؤلاء ، وحدث خلاف بشأن لواء قريش ، « فإن أبا سفيان تردد فى إعطائه لبنى عبد الدار فغضبوا وأغلظوا لأبى سفيان بعض الإغلاظ » فترك لهم اللواء .

وقد عرف أبو سفيان كيف يقود هذا الجيش الكبير حتى وصل به إلى ظاهر المدينة يوم الخميس لخمس ليال خلون من شوال ، وكانت الوقعة لسبع خلون من شوال (سنة ٣هـ/ ٢٣ مارس ٦٢٥م) وكان أهل المدينة قد زرعوا العِرض شعيراً ، والعرض أرض مزروعة تمتد من الجُرف شمال المدينة حتى الوطاء أسفل أُحُد ، فرعَتْ جِمَال القرشيين الشعير كله فى يومين ، وفى يوم اللقاء ، لم يكن فى العرض عود واحد أخضر.

وقبل أن يصل المشركون كان النبى ﷺ قد نذِر بهم ، فأسرع إلى العمل على عادته ، ومشاورة أصحابه وقتاً طويلاً فيما إذا كانوا يقاتلون فى المدينة أو يخرجون للقائهم خارجها . وكان هو أول الأمر يرى تحصين المدينة ورفع النساء والولدان فى الآطام والقتال فى شوارع البلد ، وقد رأى ذلك حرصاً منه على ألا يتعرض المسلمون لقتال ذلك العدد الضخم فى لقاء مكشوف ، ولكن شباب الأنصار من أمثال : محمد بن مسلمة ، وأسيد بن الحضير ، وسعد بن الربيع ، وسعد بن خيثمة ، أصروا على الخروج للقاء العدو فى الميدان ، وأنفوا أن تُدْخَل عليهم المدينة ، ووجد الرسول فيهم حماساً عظيماً فقرر ألا يخذلهم واستعد استعداداً تاماً ، فأحسن تنظيم رجاله بعد

(١) الواقدى ، المغازى : ١/ ٢٠٢ .

التشاور معهم ، ورسم لهم خطة العمل فقرر أن يخرج بمن يريد الخروج معه ويجعل ظهره إلى أُحُد ويجعل تل عينين القليل الارتفاع بينه وبين المشركين ، ويقف بالمسلمين إلى غَربيِّ عينين متأخرين عنه قليلاً ويجعل الرماة على التل حتى يردوا خيل المشركين . وكانت الخيل إذ ذاك تُقابل الدبابات التى تهاجم بمدافعها اليوم ، والسهام التى يرمى بها الرماة للدبابات كانت تقوم مقام المدافع المضادة اليوم .

وقد لجأ الرسول إلى ذلك الحل ليبطل ميزة المشركين الكبرى وهى الخيل ، فقد كان لديهم مائتان من الفرسان عليهم مقاتلون ذوو خبرة وبسالة وقوة ، مثل خالد بن الوليد وضرار بن الخطاب وعكرمة بن أبى جهل . وبالفعل لم يستطع المشركون اقتحام صفوف المسلمين خلال الدور الأول من المعركة ، بل انهزم المشركون وأخذوا يتهاربون وكاد أبو سفيان يخسر المعركة ، وهنا وقع المسلمون فى الخطأ الذى حذر منه الرسول أشد التحذير ، إذ إن الرماة غرَّهم النصر الأول فخالفوا أمر قائدهم عبد الله ابن جُبير ، واندفعوا يطمعون فى نصيب من الغنائم ، ولم تَفُتْ هذه الفرصة خالد بن الوليد القائد المطبوع ، فاندفع بخيله فاجتاح بقية الرماة وانصب بخيله على من بقوا فى مواقعهم منهم ، دون أن ينطلقوا فى إثر الهاربين من رجال العدو ، فاضطربت صفوف المسلمين وداخلتهم خيل العدو وتفرقوا وضاع الحزم .

وتبين الرسول خطورة الموقف فثبت مكانه ثباتاً يروع النفس ، وفى وقت من الأوقات من هذا الدور الثانى من المعركة كان يقاتل وحده حتى ثاب إليه قليل من المسلمين ، وجعلوا ينادون المسلمين فعادوا إليه وتجمعوا حوله وأصيبت شفته ودخل زرد المِغفر فى وجنتيه وشُجَّ فى رأسه ، فلم يبال بذلك وثبت لا يتزعزع . وما أسرع ما تلاحق به المسلمون وأحاطوا به ودفعوا عنه وهو يقاتل ، فلما استطاع بثباته إعادة المسلمين إلى الثبات ، بعد أن قُتِل منهم من قُتِل ، لم يفكر لحظة فى العودة إلى المدينة والقتال فيها (كما كان الرأى أولاً) ولو غيره لفعل ذلك ، ولكن رسول الله أدرك ببصيرته أن أحسن ما يفعله الآن هو السير بالمسلمين إلى لِحْف جبل أُحُد ، ويجعلوه وراء ظهورهم والاعتصام به والثبات هناك إلى آخر النهار حتى لا يعطى المشركين فرصة للتفكير فى دخول المدينة ، ولو دخلوها فى تلك الظروف لما اقتصر الأمر على

القتال فى الأزقة ، كما كان سيحدث لو أن المسلمين رسموا خطتهم على هذا الأساس، فإن أهل المدينة الآن غير مستعدين للقتال بداخلها ولا هم أعدوها لذلك ، ومعظم مقاتلى المسلمين فى خارج البلد . ثم إن النساء والولدان كانوا دون حماية ، فلو دخل المشركون لاجتثوا المسلمين اجتثاثاً واحتلوا البلد وأرغموهم على التسليم بما يريدون، وهذا هو الذى حذره الرسول ﷺ ، فقرر أن يثبت بمن معه محتمين بأُحُد فيمسكوا المشركين هناك إلى آخر النهار ، وقد نجح الرسول فى ذلك ، وفوَّت على المشركين الفرصة وجعل الدور الثالث من المعركة نصراً للمسلمين بعد أن كانوا أشرفوا على الهزيمة .

وبينما كان رسول الله ﷺ ينظر هذا النظر البعيد ويعمل على المحافظة على قوة الإسلام فى المدينة سليمة لا تمس ، ويحرص أشد الحرص على تلافى الخطأ الذى وقع فيه بعض المسلمين عندما خالفوا أوامره ، فاستطاع بسرعة بديهته وبُعْد نظره تحويل الهزيمة إلى نصر . كان أبو سفيان - وهو هنا أذكى من كان فى قريش من الرجال - لا يفكر إلا فى الثأر لبدر ويحرص أشد الحرص على قتل رسول الله ﷺ ظناً منه أن ذلك ميسور له ، وحسباناً منه أن مصير الإسلام كله مرهون بحياة محمد ، غافلاً أشد الغفلة عن أنه يحارب عقيدة قُدِّر لها بفضائلها الذاتية وصدقها وحتمية نصرها ، أن تغير صورة الحياة والمجتمع فى جزيرة العرب كلها أولاً ، ثم فيما يستطيع المسلمون إدخاله فى دين الله من أرض الله .

وعندما ترددت فى ميدان المعركة صيحة تقول : إن رسول الله ﷺ قد قُتِل ، نجد أبا سفيان يستطيره الفرح ويمضى يسأل : « يا معشر قريش ، أيكم قتل محمداً ؟ قال ابن قميئة : أنا قتلته ، قال : نُسَوِّرك [1] كما تفعل الأعاجم بأبطالها ، وجعل أبو سفيان يطوف بأبى عامر الفاسق فى المعارك / ويسأل / هل يرى محمداً / بين القتلى / ، فمر بخارجة بن زيد بن أبى زهير الخزرجى ، فقال : يا أبا سفيان ، هل تدرى من هذا القتيل ؟ قال : لا ، قال : هذا خارجة بن زيد بن أبى زهير الخزرجى ، هذا سيد بلحارث بن الخزرج ...»[2] ولم يلبث أن استبان خطأ ظنه وأن محمداً لم يقتل ، وقال

---

(١) أى : نلبسك سواراً من ذهب فى ذراعك .

(٢) الواقدى ، المغازى ، ١/ ٢٣٦ - ٢٣٧ .

له خالـد بن الوليـد : « رأيتـه أقبل فى نفر من أصحابه مصعدين فى الجبل » . « قال أبو سفيان : هذا حق ، كذب ابن قميئة . زعم أنه قتله »[1].

وإلى آخر يوم أُحُد كان المشركون ما يزالون يرجون قتل رسول الله ﷺ واحداً بعد واحد فيخيبون ، ويلقون منهم فى هذه المحاولة مصرعه من حان حيْنه ، وقد دل الرسول يوم ذلك على بسالة وثبات وهدوء جنان وثقة فى الله وفى النفس لا ندرى كيف لم يتفطن إليها أولئك الذين يزعمون أنهم يسيرون على سنته ويتبعون غَرْزَه ، وقد استهلك فى الذود عن رسول الله من المسلمين نفر يمكن اعتبار حكاياتهم مُثُلاً تُحتذى فى البسالة والفداء ، ويهمنا هنا أن نذكر مشهداً واحداً من عشرات ، نرويه هنا لندل على أن كفار قريش لم يفطنوا إلى وجهِ العبرة فى استبسال أصحاب محمد ﷺ فغابت عنهم بذلك عبرة الإسلام كله ، وقتل الكثيرون منهم على الشرك بعد ذلك ودخل الإسلام منهم كثيرون ، بعد أن انتصر الإسلام وتجلى نوره .

قال الواقدى : « وكان عباس بن عبادة بن نضلة ، وخارجة بن زيد بن أبى زهير ، وأوس بن أرقم بن زيد . وعباس رافع صوته يقول : يا معشر المسلمين ! الله ونبيكم ! هذا الذى أصابكم بمعصية نبيكم ! فيُوعدكم النصر فما صبرتم ! . ثم نزع مِغفره عن رأسه وخلع درعه فقال لخارجة بن زيد : هل لك فى درعى ومَغْفَرى ؟ قال خارجة : لا ! أنا أريد الذى تريد ، فخالطوا القوم جميعاً ، وعباس يقول : ما عُذْرنا عند ربنا إن أصيب رسول الله ومنا عين تطرف ؟ يقول خارجة : لا عذر لنا عند ربنا ولا حجة ، فأما عباس فقتله سفيان بن عبد شمس السُّلمى ، ولقد ضربه عباس ضربتين فجرحه جُرْحَين عظيمين ، فارتَثَّ يومئذٍ جريحاً ، فمكث جريحاً سنة ثم استبل ، وأخذت خارجةَ بن زيد الرماحُ ، فجرح بضعة عشر جرحاً ، فَمَر به صفوان بن أمية ، فعرفه ، فقال : هذا من أكابر أصحاب محمد وبه رمق . فأجهز عليه ، وقتل أوس بن أرقم»[2].

تتمة الخبر تدل على تفكير القرشيين خلال ذلك الثلث الأخير من المعركة : « وقال

---

(١) الواقدى ، مغازى ، ١/ ٢٣٧.
(٢) الواقدى ، مغازى ١/ ٢٥٨ .

صفوان بن أمية : من رأى خبيب بن يساف ؟ وهو يطلبه ولا يقدر عليه ، ومَثَّل يومئذ بخارجة وقال : هذا ممن أغرى بأبى يوم بدر - يعنى أمية بن خلف - الآن شَفَيت نفسى حين قَتَلت الأماثل من أصحاب محمد ، قتلت ابن قوقل وقتلت أبا أزيهر وقتلت أوس بن أرقم[1].

وهكذا انجرف القرشيون فى الاتجاه الذى وضعهم فيه رسول الله ﷺ ، طريق محاولة القضاء على قوة المسلمين العسكرية وقتل أكثر ما يستطيعون قتله منهم . وكان رسول الله يعرف أنه بعد أن نجح فى تجميع المسلمين ، والثبات بهم أسفل أُحُد ، لم يعد من الممكن للمشركين أن يصلوا إلى ما يريدون . فقد تجمع المسلمون بعضهم إلى بعض ، وشملتهم روح الفداء فمضوا يضربون ضرب المستبسل ، ولم يعد المشركون يبلغون منهم مبلغاً يُذكر ، وإذا كان المشركون قد أصابوا منهم عدداً فى فوضى الدور الثانى من المعركة ، عندما ترك الرماة مواقعهم واندفعت خيل المشركين تكر على المسلمين ، فإن الموقف تغير الآن ، فثبت المسلمون وتحصنوا . وفى وسطهم رسول الله لا يستطيع أحد الوصول إليه ، فظل المشركون يكرون على المسلمين مرة بعد مرة أخرى دون جدوى حتى انتهى النهار .

وغريب فى الأمر أن رغبة المشركين فى الوصول إلى رسول الله للقضاء عليه ، كانت من أكبر أسباب هزيمتهم ، فإنهم تدافعوا يبحثون عنه وقد أعماهم ذلك عن كل شىء غيره واستمروا فى هذا المطلب الوعر ، حتى انقضى الوقت دون أن يفكروا فى دخول المدينة وتخريبها ، ولو فعلوا لكان ذلك عملاً منهم شديد الخطورة على المسلمين ، ولكن مواهب الرسول ﷺ فعلت الأعاجيب وغيَّرت اتجاه التاريخ ، فلم يزد المشركون على أن قتلوا نحو سبعين من المسلمين . وما سبعون رجلاً بالنسبة إلى جماعة كان عددها إذ ذاك يقترب من المائة ألف ؟

ولدينا خبران عند الواقدى ، أولهما يدل دلالة بينة على أن محمداً صلوات الله عليه قصد بالفعل إلى إمساك المشركين عند الجبل حتى لا يدخلوا المدينة ، فانصرفوا بذلك إلى قتال أهل الجاهلية ، وهو قتال مبارزة رجل برجل لا قتال معارك ، تتلاقى فيها

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

صفوف الرجال على تعبئة ولها غاية وخطة ونظام ، وذلك القتال النظامى أمر لم يعرفه الجاهليون ، وقد عرفناه عند محمد ﷺ فى بدر ونحن نراه الآن فى أُحُد ، وسيتجلى بأنصع صورة فى الخندق ، فكأن رسول الله ﷺ هو أول من أدخل العرب حرب المعارك المنظمة ، وأول من صَفّ الصفوف وعَدَّلها وسواها وقسمها وأعطى لكل قسم منها أمراً يقوم به حتى يكون النصر ، وهذا من توجيه الله إياه ، فما دخل رسول الله قبل ذلك قتالاً ، ولا علَّمه أحد قتال المعارك ولا يجوز لنا - أحسب - أن نصف رسول الله ﷺ بأنه قائد عسكرى ، لأن القيادة العسكرية هدفها النصر على العدو وتحطيمه وتخريب دياره ، وما كان هكذا قتال الرسول صلوات الله عليه ، إنما هو قتال لنصر الدعوة ... فهو جزء من رسالته كنبى مرسل ، والله سبحانه وتعالى وجَّهه فى أداء رسالته بحسب ما يرى .

وفى أحيان كثيرة أخذ الرسول برأى أصحابه فى خطط المعارك لأنهم أعرف بها .

وقد أجمل الله سبحانه وتعالى طبيعة قتال محمد ، عندما قال له فى سورة الأنفال : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١) وفى هذه الآية كما نرى فصل الخطاب فى هذا الموضوع . ونتذكر فى مجال ما أدخله محمد ﷺ من صف الناس للقتال وتسوية صفوفهم قول الله تعالى فى سورة الصف : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾(٢) وفى ثبات المسلمين عند اللقاء وأنفتهم من الفرار نذكر قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ (٣) .

ثم نقرأ الفقرة التالية من كلام الواقدى فى تفاصيل وقعة أُحُد ، والكلام هنا على لسان ضرار بن الخطاب وهو من كبار فرسان قريش الذين كَرُّوا على المسلمين عندما لمحوا خُلُوَّ جبل عينين من الرماة قال : « فانتهينا إلى الجبل (عينين) فلم نجد عليه

(١) الأنفال ٨/ ١٧ .
(٢) الصف ٦١/ ٤ .
(٣) الأنفال : ٨/ ١٥-١٦ .

أحداً له بال ، وجدنا نُفَيراً فأصبناهم ، ثم دخلنا العسكر ، والقوم غارون ينتهبون العسكر ، فأقحمنا الخيل عليهم فتطايروا فى كل وجه ، ووضعنا السيوف فيهم حيث شئنا ، وجعلت أطلب الأكابر من الأوس والخزرج قَتَلة الأحبة فلا أرى أحداً . قد هربوا . فما كان حلب ناقة حتى تداعت الأنصار بينها ، فأقبلت فخالطونا ونحن فرسان (وهم رَجَّالة) فصبروا لنا ، وبذلوا أنفسهم حتى عقروا فرسى وترجلت . فقتلت منهم عشرة[1]، ولقيت من رجل منهم الموت الفاقع حتى وجدت ريح الدم ، وهو معانقى ، ما يفارقنى حتى أخذته الرماح من كل ناحية ووقع. فالحمد لله الذى أكرمهم بيدى ولم يُهنِّى بأيديهم »[2] .

فهذا تصرُّف ناس يبيعون أنفسهم فى سبيل الله ويترامون على الموت فى مشهد تذهل منه العقول : فرسان كروا على رجَّالة فأذهلوهم فهربوا لأول وهلة ، ثم ثابت إليهم نفوسهم وذكروا ما أمرهم به ربهم فعادوا يترامون على الموت . فهذا إذن توجيه من الله ، وروح بثها القرآن فى ناس عرفوا كيف يتمثلونه وائتسوا برسولهم فى ذلك فكان خُلُقُهم القرآن . فلا يتحدثن أحد هنا عن محمد القائد العسكرى ، لأن القائد هو القرآن ، والموجه للرسول هو الله سبحانه ، أما الدافع لبقية المؤمنين فهو القرآن والإيمان بالله ورسوله إيماناً شاملاً عميقاً لا يثبت أمامه شىء .

وكذلك لا يصح أن يقال « محمد الدبلوماسى » أو محمد السياسى ، لأن كلا الدبلوماسية والسياسة من مطالب إقامة الملك الدنيوى الخالص ، وهما تأذنان لصاحبهما فى الكذب والالتواء والخداع والغدر ، ما دام ذلك يؤدى إلى كسب القضية، وما عرفنا أن محمداً أجاز لنفسه أن يأتى من ذلك كله شيئاً ، وخلاصة القول فى ذلك أن محمداً صلوات الله عليه ، كان نبياً ورسولاً ، فهو يتصرف فى حدود النبوة وأداء الرسالة بأسلوب المجاهدين فى سبيل الله ، ولا يصح أن يُوصف لهذا إلا بما وصفه به ربه فى الآيات ٤٥-٤٧ من سورة الأحزاب : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأحزاب] .

---

(١) الواقدى ، مغازى ١/ ٢٨٣ .

(٢) والثابت من روايات الثقات أن ضرار بن الخطاب قتل ثلاثة من المسلمين فقط ، انظر الواقدى : ١/ ٢٨٢ .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف] ومن ثَمَّ فلا يجوز أن يسمى بغيرها ، ولا يجوز أن يقال : الله الفنان مع أن خلقه سبحانه وتعالى كله فن ، ولا يجوز أن يقال إن الله المهندس مع أن الكون كله هندسة ، وقد أمر الله بألا يُدْعى إلا بأسمائه التى سمى نفسه بها فى القرآن ، حتى لا يختلط الأمر ويتخطى الناس الحدود فى الكلام عنه سبحانه ، وكذلك الحال مع نبيه صلوات الله عليه ، لا يصح أن يوصف بأوصاف الساسة والملوك وأصحاب الدول وقادة الحروب ، حتى لا يشوب ذلك شخصه الكريم ويلتبس الأمر على الناس فى هذا المقام. هذا كله مع إمكان الناس الاقتداء به والعمل بعمله فى كل مطلب ، فهو كان يتصرف فى شئون البشر تصرف الرجال ويسمو به مع ذلك ، ويرتفع بأسلوبه وطريقته وروحه والله من ورائه لهذا ينصره ، ولو فعل أى مسلم فعله لكان نصر الله من ورائه ، وما هُزِم المسلمون أبداً ، ولكنهم لسوء حظهم أخذوا من السنة - أحياناً كثيرة - ظاهرها ، وموَّهوا الأمر على أنفسهم فخدعوها ، وخادعوا الله وهو خادعهم ، والله سبحانه ينصر من ينصره ولا يخذله أبداً .

وقد استطردنا مع هذه المعانى بمناسبة معركة أُحُدٍ وما جرى فيها لأنها معركة توالى فيها النصر والهزيمة ، وتعاقبت فيها المواقف بعضها وراء بعض على شكل تتبين لنا منه أحوال الجانبين من مسلمين ومشركين ، وما كان من تصرف محمد ﷺ حتى انتهى ذلك اليوم العسير لصالح الإسلام وأهله ، بفضل إيمان محمد وأصحابه وحسن بصيرته وثابت عزيمته ولا يحسبن أحد أننا إذ نقول إن هُدى الله هو الذى كان يوجه محمداً ﷺ فى حروبه أن ذلك كان مقصوراً عليه فإننا لا ينبغى أن ننسى أن تَقَبُّل الهدى فى ذاته مَلَكة ، فإن المهتدى يرى الهدى ويختاره ويتحمل مسئولياته ، فلم يكن أيسر على محمد عندما انقضَّت على قوته خيل المشركين من أن يعود مسرعاً بقومه إلى المدينة ليحاربوا فى أزقتها ، ولكن قوة إيمانه كشفت له عما ينبغى عليه عمله فى ساعة العسرة ، فثبت هذا الثبات العظيم ثم قرر - دون دهش أو ذهول - أن يتجه نحو الجبل ليحمى ظهره به ويثبت هناك ليمسك المشركين عند الجبل ويحول بينهم وبين دخول المدينة .

وتلك هى ملكة القيادة التى أوتيها محمد ، وهى نابعة من إيمانه لا من المهارة

العسكرية ، وهو هنا لم يتحيل أو يتظاهر كما قد يفعل القائد العسكرى الصرف الذى لا أرب له إلا النصر فى النهاية مهما كانت الوسيلة ، وهو لم يجبن أو يفر أو يتقهقر شأن من يطلب نجاة نفسه ، وليس كل فرار هزيمة ، ولا كل فرار انكساراً ، ولا كل تقهقر خوفاً ، والقائد العسكرى يختار من المسالك ما يشاء لكى يصل إلى النصر فى النهاية ، وما هذا شأن محمد ولا ينبغى له فهو شاهد (أى نموذج وقدوة) ومبشر (للمؤمنين) ونذير (للمشركين) وداعٍ إلى الله بإذنه فى كل حال ، وهو فى هذا كله سراج منير ، أى نور يهتدى به الناس ، وبفضل هذا النور يبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ، وهذا جانب من تفسير هذه الآيات العظيمة نستخرجه من عبرة التاريخ .

والآن لننظر كيف انتهى يوم أُحُد لنرى كيف تبين المشركون أن هدى محمد وبصيرته كسبت له اليوم وضيَّعت عليهم ثمرة النصر ، فلم يخرجوا من قوتهم الضخمة إلا بقتل عدد من المؤمنين ، وسنأتى هنا ببضع روايات ساقها الواقدى على علاتها ، ونرتبها نحن على النحو الذى يتفق مع نسق التاريخ ، فقد سئل عمرو بن العاص : كيف كان افتراق المسلمين والمشركين يوم أُحُد ، فقال : « لما كَرَرنا عليهم أصبنا من أصبنا منهم ، وتفرقوا فى كل وجه وفاءت لهم فئة بَعْدُ ، فتشاورت قريش فقالوا : لنا الغلبة ، فلو انصرفنا ! فإنه بلغنا أن ابن أُبَىّ انصرف بثلث الناس ، وقد تخلف ناس من الأوس والخزرج ، ولا نأمن أن يكروا علينا وفينا جراح ، وخيلنا عامتها قد عُقِرت من النبل . فمضوا ، فما بلغنا الرَّوْحَاء حتى قام علينا عدة منها ، ومضينا[1] .

وفى رواية أخرى تلى هذه فى الأهمية من ناحية سياق الحوادث : نقرأ عند الواقدى « لما تحاجزوا أراد أبو سفيان الانصراف ، وأقبل يسير على فرس له حواء[2] أنثى ، فأشرف على أصحاب النبى ﷺ فى عرض الجبل ، فنادى بأعلى صوته : أُعلُ هُبل ! ثم يصيح أين ابن أبى كبشة (يريد رسول الله ﷺ) أين ابن أبى قحافة ؟ أين ابن الخطاب؟ يوم بيوم بدر ألا إن الأيام دُوَل ، وإن الحرب سجال ، وحنظلة

(١) الواقدى / مغازى ١/ ٢٩٩ .
(٢) حواء أى : لونها بنى يضرب إلى السواد .

بحنظلة[1] ... (ثم قال بعد ذلك أبو سفيان مخاطباً عمر) : أنشدك بدينك هل قتلنا محمداً ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال : أنت عندى أصدق من ابن قُميئة - وكان ابن قُميئة أخبرهم أنه قتل النبى ﷺ - ثم قال أبو سفيان ورفع صوته : إنكم واجدون فى قتلاكم عيثاً ومثلاً ، ألا إن ذلك لم يكن عن رأى سراتنا . ثم أدركته حمية الجاهلية فقال : أما إذا كان ذلك فلك فلم نَكْرَهه . ثم نادى : ألا إن موعدكم بدر الصفراء على رأس الحول ! »[2] .

وبقية هذه الرواية تعطينا وصف الحالة فى معسكر المسلمين بعد نهاية المعركة : « قد انصرف أبو سفيان إلى أصحابه وأخذوا فى الرحيل ، فأشفق رسول الله ﷺ والمسلمون ، فاشتدت شفقتهم من أن يُغير المشركون على المدينة فتهلك الذرارى والنساء ، فقال رسول الله ﷺ لسعد بن أبى وقاص : ائتنا بخبر القوم ، فإن ركبوا الإبل وجَنّبوا الخيل فهو الظعن (الرحيل) وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهى الغارة على المدينة ، والذى نفسى بيده ، لئن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم !» وتبعهم سعد حتى وصلوا العقيق ، فرآهم يركبون الإبل ويتركون الخيل جانباً فعرف أنهم ظاعنون إلى مكة ، ثم يسترسل سعد بن أبى وقاص فيقول : « فوقفوا وقفة بالعقيق وتشاوروا فى دخول المدينة ، فقال صفوان بن أمية : قد أصبتم القوم ، فانصرفوا فلا تدخلوا عليهم وأنتم كالُون ، ولكم الظفر ، فإنكم لا تدرون ما يغشاكم. قد وليتم يوم بدر ، والله ما تبعوكم والظفر لهم ، فقال رسول الله ﷺ : نهاهم صفوان »[3].

وإذن فقد أفلح رسول الله ﷺ فى صرف قريش عن محاولة دخول المدينة ، ورجع القوم دون أن يبلغوا أرباً عسكرياً ذا بال . فلا زالت المدينة سليمة لم تمس وهى قوية متماسكة ملتفة حول رسولها لم يُفقد من كبار رجالها إلا حمزة بن عبد المطلب ومُصعب ابن عمير ، وكانت عدة القتلى كلهم ٧٤ ، منهم أربعة من قريش والباقى من الأنصار،

(١) حنظلة الأول هو ابن أبى سفيان وقد قتله المسلمون فى بدر ، وأما حنظلة الثانى فهو حنظلة بن عبد عمرو وكان من أصدق المؤمنين وقد استشهد فى أحد وهو ابن أبى عامر بن صيفى من بنى ضبيعة ، من بنى مالك بن الأوس ، وكان من أعداء الإسلام ولهذا لقبه المسلمون بأبى عامر الفاسق . وكان يلقب نفسه بأبى عامر الراهب .

(٢) الواقدى ، مغازى : ١/ ٢٩٦-٢٩٧ .

(٣) الواقدى ، مغازى : ١/ ٢٩٨ .

وكانت أحفل بطون الأنصار بالشهداء هم بنوعبد الأشهل من الخزرج ، فقد استشهد منهم اثنا عشر رجلاً .

وقد تبينت قريش أنها لم تُصِبْ من المدينة شيئاً كثيراً ، ورأى رسول الله ﷺ أن يطمئن اطمئناناً تاماً إلى أن القرشيين لن يعودوا إلى المدينة . وكان على الحق فى حذره هذا ، وعلى عهدنا به كان سباقاً إلى العمل ، ففى صبيحة اليوم التالى ليوم أُحُد ، وعلى رغم الجراحات البالغة التى كان أصحابه(وهو نفسه) يعانون منها ، شرع فى اتباع الكفار مطارداً لهم بعيداً عن المدينة ، وتلك هى غزوة حمراء الأسد . وقد عانى صلوات الله عليه وأصحابه من ذلك وصباً شديداً ، ولكن لا بد مما ليس منه بُدٌّ ، فدعا أصحابه للخروج رغم جراحاتهم ، وقَصَر الخروج على من اشترك فى أُحُد ، ومضوا يلاحقون العدو ، ومر وهو فى طريقه فى أعقابهم بنفر من خزاعة على رأسهم مَعبِد بن أبى معبد الخزاعى .

وكانت خزاعة حِلْفاً دائماً لرسول الله ﷺ ، عيناً لأمة الإسلام على عداتها أينما كانوا، فذهب معبد وتسمع على القوم « ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقريشاً بالروحاء وهم يقولون : لا محمداً أصبتم ولا الكواعب أردفتم ، فبئس ما صنعتم ! فهم مجمعون على الرجوع ، ويقول قائلهم فيما بينهم : ما صنعنا شيئاً ! أصبنا أشرافهم ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ، قبل أن يكون لهم وفر - والمتكلم بهذا عكرمة بن أبى جهل - فلما جاء معبد إلى أبى سفيان قال : هذا معبد وعنده الخبر ، ما وراءك يا معبد ؟ قال : تركت محمداً وأصحابه خلفى يتحرقون عليكم بمثل النيران ، وقد أجمع معه من تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج ، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم ، وغضبوا لقومهم غضباً شديداً ، ولمن أصبتم من أشرافهم . قالوا : ويلك ! ما تقول ؟ قال : والله ما نرى أن نرتحل حتى نرى نواصى الخيل !»[1] .

ومازال معبد حتى ألقى فى قلوبهم الخوف ، فعاد صفوان ينصحهم بالعودة إلى مكة بما قدر لهم من الظفر ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال : «أرشدهم صفوان ، وما كان برشيد ، والذى نفسى بيده لقد سَوَّمْتُ لهم الحجارة ، ولو رجعوا لكانوا كأمس

---

(١) الواقدى ، مغازى : ١/ ٣٣٨-٣٣٩ .

الذاهب ! فانصرف القوم سراعاً خائفين من الطلب لهم »[1] وكان رسول الله على الحق فى تقديره ، وكان قد وصل بأصحابه إلى موضع حمراء الأسد فى خلف القوم ، فلكى يستوثق من أن القرشيين لن يعودوا جعل أصحابه يجمعون حطباً كثيراً ، وعندما جن الليل أوقدت النيران فكانت أكثر من خمسمائة أضاء لها الليل ، وانتشر الخبر فى كل اتجاه ، فرهبت القبائل وأسرع القرشيون عائدين إلى مكة ، وقد بلغ خوفهم من المسلمين كل مبلغ ، وقد بدأت غزوة حمراء الأسد فى الثامن من شوال ٣ هـ/ ٢٤ مارس ٦٢٥م . واستمرت خمسة أيام وعاد رسول الله إلى المدينة .

وجدير بالملاحظة أن أربعاً من غزوات الرسول الكبرى كانت فى عام ميلادى وثلاثة شهور من يناير ٦٢٤إلى مارس ٦٢٥م . فكانت نخلة فى يناير ٦٢٤م وبدر فى مارس من نفس السنة ثم كانت أُحُد وحمراء الأسد فى مارس ٦٢٥م. وهذا جهد فى الغزوات لم يعرفه العرب إلا مع الإسلام ، فكان رسول الله فى ذلك صاحب القدوة الرفيعة فى الجهاد وبذل النفس ، فلا عجب والحالة هذه أننا نرى أهل الجيل الأول من أمة الإسلام يأتسون بنبيهم فى ذلك النشاط الواسع ، والإقبال على الجهاد فى غير تراخٍ أو خوف ، فكانت معجزة الفتوح الكبرى الأولى .

وأما قريش فلم يكن لها بهذا النشاط العسكرى عهد ، فقد كانوا - وظلوا حتى فتح مكة - على أسلوب الجاهلية فى الحرب : أسلوب فرسان لا ينهضون للحرب إلا مختالين مغرورين بأنفسهم أو طالبين ثأراً ، أما ترى أبا سفيان يتواعد مع المسلمين على اللقاء بعد أُحُد فى عام . وحتى حان موعد العام من بدر كان الرسول قد خرج أو أرسل خمس غزوات وسرايا هى حمراء الأسد وقَطَن وبئر معونة والنضير والرجيع ؟ ثم خرج الرسول مبادراً إلى بدر الموعد فى ذى القعدة سنة أربع / أبريل ٦٢٦ م .

وهكذا تكون موقعة أُحُد التى يقال إنها هزيمة للمسلمين قد مضت بغير كسب يُذكر لقريش ، فلا هم أصابوا محمداً ﷺ ، ولا هم أذلوا المسلمين باقتحام بلدهم وسبى نسائهم ، ولا هم فكُّوا حصار مدينتهم ، فظلت متاجرهم معطلة وازدادت

(١) الواقدى ، مغازى : ١/ ٣٣٩ .

حالتهم الاقتصادية سوءاً ، وأقاموا منجحرين فى مدينتهم لا يدرون ما يصنعون ، وقد انصرفت عنهم معظم القبائل فى حين تابع رسول الله ﷺ غزواته وسراياه . لا ليضرب القبائل ويصيب المغانم كما يظن الكثيرون من المستشرقين ، ولا ليتلافى تجمع بعض الأعداء عليه كما تذهب مراجعنا التقليدية ، ومعظم مؤرخينا القدامى لم يزد إدراكهم لمرامى رسول الله وغاياته البعيدة غير ذلك ، وهو فى رأينا كلال منهم عن إدراك حركة تاريخية كبرى غيَّرت مصائر البشر .

الدَّور الثالث من الصِّراع بَين قريش وَ الإسْلام

مِن حَمراء الأسد إلى الخندق :

قبل أن يعود القرشيون إلى مكة كانوا قد تبينوا أنهم لم يكسبوا غير نصر محدود يتلخص فى إدراك بعض الثأر لما أصابهم يوم بدر ، وإذا كان إدراك الثأر بالمفهوم الجاهلى هو أن تقتل من الخصم نظير من قُتِل أو من يعادله ، فإن القرشيين أحسُّوا أنهم حتى فى موضوع الثأر لم يشفوا غليلهم ، فهم لم يصيبوا محمداً ﷺ ولا أبا بكر ولا عمر ولا علياً ، وهم لم يصيبوا من يعتبرونهم خصومهم الحقيقيين وأندادهم إلا حمزة ابن عبد المطلب ومصعب بن عمير وهنا أيضاً نجد أن ختام الحساب لم يكن ليرضى قريشاً ، فإن مصعب بن عمير من بني عبد الدار ، وبنو عبد الدار بالذات كانوا أحفل بطون قريش الكافرة بالخسارة فى أُحُد ، فقد قتل منهم أحد عشر رجلاً كانوا فى معسكر المشركين ، وهم يتناوبون على لواء قريش أو يدافعون عنه ، وكانوا أصحاب اللواء فى الجانبين .

وإذا نحن أخذنا حمراء الأسد وما وقع فيها فى الحساب ، فإن النتيجة تكون أن القرشيين عادوا إلى مكة مسرعين خائفين ، فى حين أن المسلمين طاردوهم وضربوا معسكرهم فى الطريق إلى مكة ، وأشعلوا نيرانهم فى ظلام الليل ، فكان لهذا العمل رهبة فى قلوب الأعداء ، ثم عاد المسلمون بعد ذلك إلى مكة رافعى الرؤوس ظاهرين على عدوهم ، ثم لم يلبثوا أن ضربوا بنى النضير ضربتهم القاصمة فتخلصوا من عدو خطير كامن معهم داخل معقلهم ، وأخافوا بذلك كل من كانت تحدثه نفسه بخيانة أمة المدينة أو نقض ميثاقه معها أو مخالفة أعدائها عليها ، ثم إن المسلمين أصابوا من بنى النَّضير أموالاً وأراضى وسلاحاً انتفعوا بها كلها فى مواصلة الجهاد .

وكان ما فعله رسول الله ﷺ فى حمراء الأسد قد ألقى الرهبة فى قلوب أعداء أمة الإسلام ، فزاد أمن المسلمين فى بلدهم وازدادت مخاوف قريش ، وقد عبَّر عن ذلك أحد المسلمين بقوله: « فإذا أمسوا أمرنا (رسول الله) أن نوقد النيران ، فيوقد كل رجل ناراً ، فلقد كنا تلك الليالى نوقد خمسمائة نار حتى تُرى من المكان البعيد ، وذهب ذكر معسكرنا ونيراننا فى كل وجه ، حتى كان مما كبت الله تعالى عدونا» (١).

أما قريش فقد تبينت بعد قليل أنها لم تحسن الانتفاع بحملتها الكبيرة التى اشترك فيها ٣٠٠٠ مقاتل من بينهم ٧٠٠ دارع ومائتا فارس من قريش وحلفائها . ويصور لنا ذلك ما قاله رئيس من رؤساء خزاعة - وكان حليفاً لأمة المدينة ، فقد مر بالقرشيين وهم عائدون من حمراء الأسد فوجدهم يقول بعضهم لبعض : « لا محمداً أصبتم ولا الكواعب أردفتم ، فبئس ما صنعتم » ، وإرداف الكواعب هنا لا يراد به مجرد سبى النساء ، بل المراد به الإذلال والإشعار بالمهانة ، وكان سبى النساء أسوأ ما يمكن أن يصيب قوماً من العرب .

وهنا نفهم ما أراده رسول الله ﷺ عندما تزوج جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق الخزاعيين بعد أن انهزم قومها وسَبَى المسلمون نساءهم ، فلم يشأ رسول الله أن يُشْعِر بنى المصطلق بالمهانة ، فلما تزوج جويرية أم المؤمنين ، أسرع المسلمون فأطلقوا سراح من كانوا سَبُوهُنَّ من نساء بنى المصطلق ، لأن كل الذى أراده رسول الله من غزوهم هو أن يُشْعرهم أن منطقتهم تقع فى دائرة سلطان أمة المدينة ، ولا معنى لهذا لأن يدبروا عليه أو يحالفوا عدواً ، فلما انتهت الوقعة دون أن ينال بنى المصطلق هوان وصاهرهم رسول الله ، تمهد الطريق لدخول بنى المصطلق فى الإسلام . وبنو المصطلق من خزاعة ، وكان أكبر قبيل من خزاعة - هو قبيل كعب - حلفاء للرسول ﷺ وأمة الإسلام ، وقد خرج رئيسهم الحارث بن أبى ضرار والد جويرية أم المؤمنين عن إجماع قومه ، فرأى الرسول أن يعيده إلى صف خزاعة بغزوه غزوة بنى المصطلق التى تسمى المريسيع باسم ماء كان فى مواطن بنى المصطلق على شاطىء البحر بين المدينة ومكة .

---

(١) الواقدى : المغازى ، ١/ ٣٣٨ .

وإذن فقد عرف رسول الله كيف يجعل هذا الفريق من خزاعة عبرة لمن يعتبر ، وكان أكثر ما حبب الناس فى رسول الله ﷺ وفخر عامة القرشيين به - دون الرؤساء - هى معاملته الكريمة لبنى المصطلق بعد هزيمتهم . وتزايد شعور عامة أهل مكة من القرشيين بالميل إلى رسول الله والإسلام بعدها . وكان أبو سفيان رغم ما تظاهر به من النصر قد رأى يوم أُحُد أن قريشاً ليست نداً لأمة الإسلام ، وإذا كان قومه قد قتلوا أربعة وسبعين من المسلمين فقد قُتِل منهم - رغم ما حدث - فوق الأربعة والعشرين ، ثم توالت غزوات المسلمين وانتصاراتهم وزادت قوتهم ، واشتروا خيلاً وركب الكثيرون منهم ، ولهذا تردد أبو سفيان فى الخروج للقاء المسلمين عند بدر الصفراء كما كان وعدهم يوم أُحُد .

وكان موضع بدر الصفراء مكان سوق « مجتمعاً يجتمع فيه العرب وسوقاً تقوم لهلال ذى القعدة إلى ثمانى ليال خلون منه ، فإذا مضت ثمانى ليال منه تفرق الناس إلى بلادهم»[1]. ويضيف الواقدى هنا : « فلما دنا الموعد كره أبو سفيان الخروج إلى رسول الله ﷺ ، وجعل يحب أن يقيم رسول الله ﷺ وأصحابه فى الموعد ، ولا يوافقون الموعد» [2]، وجعل يظهر للوافدين على المدينة أنه ينوى الخروج للقاء المسلمين فى جمع كثيف على أمل أن يثبط ذلك من همة المسلمين .

ولكن رسول الله لم يقعد بل خرج بأصحابه إلى موضع بدر الصفراء ، وقد أيد فكرة الخروج أبو بكر وعمر ، بل خرج المسلمون ببضائع هم ليتجروا فيها فى سوق بدر الصفراء ، « فانتهوا إلى بدر ليلة هلال ذى القعدة ، وقام السوق صبيحة الهلال (سنة ٤هـ / ابريل ٦٢٦م) فأقاموا ثمانية أيام والسوق قائمة ، وكان رسول الله ﷺ قد خرج فى ١٥٠٠ رجل من أصحابه ، وكانت الخيل ١٠ أفراس : فرس لرسول الله ﷺ، وفرس لأبى بكر ، وفرس لعمر ، وفرس لأبى قتادة ، وفرس لسعيد بن زيد ، وفرس للمقداد ، وفرس للحباب بن المنذر ، وفرس للزبير ، وفرس لعَباد بن بشر » . وكان أبو سفيان يظن أن المسلمين لن يخرجوا ، فاقترح على أصحابه أن يخرجوا مسافة ليلة أو ليلتين من مكة حتى يقال إن قريشاً قد خرجت وأن المسلمين خافوا من اللقاء

(١) الواقدى : مغازى ١/ ٣٨٥ .
(٢) الواقدى : مغازى ١/ ٣٨٥-٣٨٦ .

«فيكون هذا لفاعليه . وإن كان قد خرج أظهرنا أن هذا عام جدب ، ولا يُصْلِحنا إلا عام عشب » فوافقوه على ذلك وخرجوا فى ألفين وخمسين خروجاً كاذباً انتهوا فيه إلى مَجِنَة ثم عادوا ، وكان العام عام جدب ، فكان طعامهم الدقيق (السويق) يذيبونه فى الماء ، فسمى جيشهم جيش السويق .

وفى تفاصيل سرية بئر معونة درس عظيم من دروس السيرة ، فقد خرجت جماعة المسلمين فى المحرم سنة ٤هـ / يوليو ٦٢٧م . ولم تعد فقد استشهد رجالها جميعاً ونحن نقرأ عند الواقدى وغيره ، « وكان من الأنصار سبعون رجلاً شَبَبَة يُسمَّون القراء . كانوا إذا أمسوا انتحوا ناحية من المدينة فتدارسوا وصَلَّوا . حتى إذا كان وجه الصبح استعذبوا من الماء وحطبوا من الحطب ، فجاءوا به إلى حُجَر رسول الله ﷺ ، وكان أهلوهم يظنون أنهم فى المسجد ، وكان أهل المسجد يظنون أنهم فى أهليهم ، فبعثهم رسول الله ﷺ فخرجوا فأصيبوا فى بئر معونة» (١) .

ويقال : إنهم كانوا سبعين ولكن الثابت أنهم كانوا أربعين ، غدرهم بنو عُصَيَّة بن خفاف بن امرىء القيس بن بهثة من بنى مازن بن منصور من قيس عَيْلان وأبناء عمهم بنوكلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة يقودهم رجل منهم يسمى عامر بن الطفيل ، وهؤلاء كانوا جيران بنى أسد ، وكلهم من أعراب مضر الذين كانوا يرعون فى مرتفعات غربى نجد ، وكان رسول الله لا يثق فيهم ويخاف غدراتهم على المسلمين، وهم يدخلون فى جملة أعاريب نجد . ومصيبة كهذه - أى استشهاد أربعين من رجال أمة المدينة دفعة واحدة - لو وقعت فى أى جماعة كان لا بد أن تهز كيانها ، ولكننا نقرأ أخبار أمة المدينة فنجد أنها لم تتأثر شعرة بما حدث لأهل بئر معونة ، فقد كان بنيانها صلباً متيناً ، وما كان الموت فى سبيل الله إلا إحدى الحسنيين اللتين يشتاق إليهما كل أهل الجماعة ، ولكن رسول الله وجد عليهم وجداً شديداً ، وظل يذكرهم ويترحم عليهم .

ولم يكن الشباب الذين خرجوا لنشر الإسلام فى سرية بئر معونة قد تعلموا شيئاً من نظم الحرب عند السابقين من أهل الأمم ، ولكننا نجد أفرادها يتصرفون تصرفاً

(١) الواقدى ، مغازى ١/ ٣٤٧ .

عسكرياً بالغ النظام والضبط . فقد ثبتوا وانتخبوا منهم رئيساً وتشاوروا فيما بينهم حين أحيط بهم ، وأحسوا ألا مفر لهم من الاستشهاد ، واستقبلوا الموت فى جلال يروع النفس ، لأنهم كانوا ينتسبون إلى أمة جعلها رسول الله ﷺ أمة جيشاً أو جيشاً أمة ، (وهكذا كان ينبغى أن تكون أمة الإسلام أبد الدهر حتى تؤدى رسالتها كاملة).

ثم انظر إلى روح التضحية والفداء والمبادرة إلى ما يرضاه رسول الله ﷺ (إيماناً بأنه الواجب) ، فى خبر مما حدث بعد إخراج الرسول لبنى النضير من المدينة ، وإفاءة الله سبحانه أموالهم لرسول الله . فقد رأى الرسول ﷺ أن أموال بنى النضير فى إفاءة الله عليه ، فهى له من دون بقية المؤمنين ، فلم يُبْدِ واحد من المسلمين معارضة وتركوا الأموال لرسول الله يتصرف فيها لصالح الأمة ، فاشترى بمعظمها سلاحاً وخيلاً .

وهكذا رأى الناس أن أمة الإسلام هى الأقوى ، فها هى تبادر إلى الموعد على أهبة القتال ، فى حين خرج القرشيون خروجاً مشيناً لم يخف على أحد . وقد أحست قريش بالخجل مما فعلت ، وخافت على اسمها بين الناس ، ثم إن بقاء طريق التجارة مقفلاً كان يضطرهم إلى الخروج ، وهذه كلها كانت أسباب خروج المشركين وحلفائهم للغارة على المدينة فى غزوة الأحزاب .

وفى أثناء خروج رسول الله ﷺ وقع حادث صغير يدل على مدى ما وصلت إليه المدينة من القوة بعد أُحُد ، فإن المسلمين قابلوا فى طريقهم جمعاً من بنى ضمرة (بن بكر بن عبد مناة من كنانة) على رأسهم شيخ يسمى مخشى بن عمرو ، وكان هذا الرجل قد حجز بين المسلمين وجماعة من تجار قريش ، فيهم أبو سفيان قبل بدر ، وتوسط بين الفريقين وصرفهما عن القتال ، وذلك فى غزوة الأبواء أو وَدَّان فى ربيع الأول سنة ٢هـ / سبتمبر ٦٢٣م . ووادع الرسول يومئذ بنى ضمرة ، ثم التوت بنو ضمرة مع بقية بنى بكر بن عبد مناة وأصبحوا أحلافاً لقريش على أمة المدينة ، وسيظهر ذلك جلياً بعد الحُديبية ، عندما نجد بنى بكر بن عبد مناة يعلنون أنهم يدخلون فى حلف قريش عندما دخلت خزاعة فى حلف أمة الإسلام ، وكان عدوان بنى بكر هؤلاء على بنى كعب من خزاعة ، هو الذى أخرج رسول الله ﷺ من المدينة لفتح مكة عام الفتح .

وكان رسول الله يعرف ما تنطوى عليه ضمرة وشيخها عندما لقيهم مَخْرَجَه إلى بدر الموعد ، فقال مخشى بن عمرو الضمرى وكأنه دهش لرؤية رسول الله ومن معه من المؤمنين : « لقد أُخبرنا أنه لم يبق منكم أحد ! فما أعلمكم إلا أهل الموسم ، فقال رسول الله ﷺ ليُرْفَع ذلك إلى عدوه من قريش [1]: ما أخرجنا إلا موعد أبى سفيان وقتال عدونا ، وإن شئت - مع ذلك - نَبَذْنَا إليك وإلى قومك العهد [2] ثم جالدناكم قبل أن نبرح من منزلنا هذا . (فخاف) الضمرى (وقال) بل نكف أيدينا عنكم ونتمسك بحلفك[3] » وبلغ هذا الكلام معبد بن أبى معبد الخزاعى حليف أمة المدينة، مثله فى ذلك مثل بقية بنى كعب الخزاعيين فأسرع به إلى مكة .

ويبدو أن شيوخ البدو هؤلاء من بنى بكر بن عبد مناة وخزاعة وبنى أسد ولحيان وضمرة وزغبة ورعل ، وبقية بطون مضر قد سرهم هذا الصراع بين مكة والمدينة فأصبحوا يجوسون الفيافى طلباً للأخبار ليطيروا بها أسرع من الطير إلى مكة أو المدينة يؤججون النار بين الجانبين ، فأما قريش فكانت تنخدع بكلامهم ، بل كانت تهبط إلى مستواهم فكانت تؤجرهم على ذلك ، وقد كانت قريش دائماً تؤدى إلى هذه القبائل إتاوات وأموالاً لتضمن سلامها وسلامة متاجرها ، وكانت تستخدم هذه القبائل فى تحقيق مآربها ، وقد رأينا أمثلة لذلك فيما مر، وهنا فى غزوة بدر الموعد نرى أبا سفيان يقول لشيخ من شيوخ أولئك الأعراب وهو نُعَيم بن مسعود الأشجعى « الأرض مثل ظهر الترس ليس فيها لبعير شىء ، وإنما يصلحنا عام خصب غَيداق ترعى فيه الظهر والخيل ونشرب اللبن ، وأنا أكره أن يخرج محمد وأصحابه ولا أخرج فيجترئون علينا ، ويكون الخُلْف من جانبهم أحب إلىَّ ، [فاذهب إلى محمد وأصحابه وخذِّلهم عن الخروج] ، ونجعل لك عشرين فريضة ، عشراً جذاعاً وعشراً حِقاقاً [4] وتوضع لك على يدى سهيل بن عمرو ويضمنها لك ، قال نعيم : رضيت[5] ... » .

---

(١) أى : أن رسول الله قال ما قال لكى تبلغ مقالته قريشاً ، وكان مَخشى بن عمرو الضمرى من حلفائها وعيونها فى السر . وكلام النص فى المتن للواقدى .

(٢) أى : أنهينا حلفنا معك ومع قومك .

(٣) الواقدى ، مغازى ، ٢/ ٣٨٨ وما بين أقواس ألفاظ أضفتها للتوضيح والبقية لمحمد بن عمر بن واقد .

(٤) الإبل الجذاع التى دخلت السنة الخامسة من عمرها ، والحقاق ما دخلت الرابعة .

(٥) الواقدى ، مغازى ١/ ٣٨٥-٣٨٦ .

أما رسول الله ﷺ فكان لا يدفع لهؤلاء البدو شيئاً ولا يؤدى إليهم إتاوة ، وإنما هو كان يدعوهم للإسلام ، فإن قبلوا كانوا من أمة الإسلام يخدمونها ويصدقون معها مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من المؤمنين ، فإذا أبوا إلا الإقامة على الشرك عرض عليهم الحلف أن يَصْدُقُوه ولا يُخفوا عنه شيئاً ولا يعينوا عليه عدواً ، فكانوا يقبلون ذلك ، فإذا نقضوا العهد كان لا بد من تأديبهم كما فعل مع بنى المصطلق ، وكان إذا تحدث مع أولئك الأعراب تكلم فى حزم ووضوح ، وكان فى العادة يزن كل كلمة يقولها ويعرف أين تذهب ، وقد رأينا كيف كان كلامه لخشى بن عمرو الضمرى .

وهذا الموقف من محمد رسول الله ﷺ من الأعراب هو السبب فى مأساتى بئر معونة والرجيع ، وهما سريتان قُتل فى الأولى أربعون من أتقياء شباب الأنصار ، وكان أبو البراء عامر بن مالك مُلاعب الأسنة قد طلب إلى الرسول أن يبعث نفراً من المسلمين ليدعوا بنى سُلَيم بن منصور إلى الإسلام وضَمِن له جوارهم ، فخرجوا إلى بنى سُليم حيث غدروا بهم وقتلوهم . وبعد ذلك بقليل ، وقبل أن يُقتل أصحاب بئر معونة ، أرسل بنو لحيان إلى عَضْل والقارة يعرضون عليهم أن يبعثوا إلى رسول الله رسلاً فيكلموه ، فيخرج إليهم نفراً من أصحابه يدعونهم إلى الإسلام « فنقتل من قتل صاحبنا ، ونخرج بسائرهم إلى قريش بمكة فنصيب بهم ثمناً ، فإنهم ليسوا لشىء أحب إليهم من أن يؤتوا بأحد من أصحاب محمد يُمثِّلون به ويقتلونه بمن قتل منهم فى بدر » ، وتم هذا بالفعل ، وأرسل إليهم رسول الله جماعة من الدعاة على رأسهم مَرْثَد بن أبى مَرْثَد الغنوى فغدروهم وأسروا بعضهم وباعوهم لأهل مكة فقتلوا منهم اثنين ، وقد غضب رسول الله ﷺ على أولئك الأعراب من أهل أطراف نجد ، وقال: « اللهم اشدد وطأتك على مضر! اللهم عليك ببنى لحيان وَزغْب ورِعْل وذكوان وعُصَيَّة ، فإنهم عصوا الله ورسوله ، اللهم عليك ببنى لحيان وعضل والقارة»[1] ومُضر التى دعا عليها رسول الله هنا هى مضر قيس عيلان لامضر الياس.

ومن هذه الأخبار يتجلى كيف كان رسول الله ﷺ يعامل هؤلاء الأعراب ، فهو

---

(١) مغازى الواقدى : ١/ ص ٣٤٩ وما بعدها .

لا يصانعهم ولا يتعامل معهم إلا على شرط الإسلام ، بل كان لا يقبل من أحد منهم هدية إلا إذا أسلم ، وقد عرض عليه أبو البراء مُلاعب الأسِنَّة هدية فرسين وراحلتين فردَّها وقال : « لا أقبل هدية مشرك » ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يسلم ولم يبعُد [1] أما قريش فقد كانت تسايرهم وتفعل فعلهم وتهبط إلى مستواهم حتى لقد اشتروا منهم اثنين ممن أسروهم غدراً من رجال سرية الرجيع هما : خبيب بن عدى ، وزيد ابن الدثنة ، فقتلوهما فى خبر طويل .

ولهذا فقد كان الأعراب لا يُوقِّرون قريشاً ويسخرون منها ، وعندما خاف القرشيون لقاء المسلمين فى بدر الصفراء وبعثوا يستعينون بالأعراب زاد استخفافهم بهم ، فقد رأوا خوف قريش وثبات أمة الإسلام ، ولهذا فعندما قررت قريش أن تخرج لغزوة الخندق ، قال صفوان بن أمية لأبى سفيان : « قد والله نهيتك يومئذ أن تَعِد القوم ، وقد اجترأوا علينا ورأوا أننا قد أخلفناهم ، وإنما خَلَّفَنَا الضعف عنهم ، فأخذوا (أى القرشيون) فى الكيد والنفقة فى قتال رسول الله ﷺ ، واستجلبوا مَنْ حولهم من العرب وجمعوا الأموال العظام، وضربوا البعث على أهل مكة فلم يترك أحد منهم إلا أن يأتى بما قل أو كثر ، فلم يُقبل من أحد منهم أقل من أوقية لغزوة الخندق ، وقال معبد بن أبى معبد الخزاعى وقد سبق أن ذكرناه ، وهو شيخ بنى كعب من خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ، قال ساخراً من قريش يتوقع لها الهزيمة :

تَهْوِى على دين أبيها الأثْلَد إذْ جعلَتْ ماءَ قُدَيْد[2] مَوعِد

وماءَ ضَجْنَان لها ضُحَى الغَدِ إذ نَفَرتِ من رُفْقَتى مُحمد

وعَجوة موضوعةٍ كالعَنْجد

الدَّور الرابع من الصّراع بَين قريش وَالإسلام :

مِن بَدر الموعِد إلى غزوَة الأحزاب أو الخندَق :

كانت غزوة بدر الموعد فى ذى القعدة ٤هـ / أبريل ٦٢٦ م ، وكانت الخندق فى

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٥٠ .

(٢) قديد : بليدة على الطريق من مكة إلى المدينة ، وهى غير بعيدة عن بدر الصفراء .

ذى القعدة سنة ٥ للهجرة / أبريل ٦٢٧م . فبينهما عام هجرى ، وهو عام ميلادى إلا أياماً ، وفى خلال هذا العام خطت المدينة خطوات واسعة نحو القوة واتساع الرقعة والهيبة فى شمال الجزيرة ووسطها جميعاً ، فإن مأساتى بئر معونة والرجيع ، كانتا دافعتين لرسول الله ﷺ لتمكين قبضة المدينة على الحجاز حتى أحواز مكة وعلى قبائل العرب فيما بين الحجاز ونجد ، فأرسل رسول الله عبد الله بن عتيك وأصحابه ليقضى على أبى رافع اليهودى ، وكان عدواً لدوداً للإسلام ، يؤلب عليه ويثير الناس على أمة المدينة ، وكان يسكن خيبر فَقُتِل فى خيبر وبين أهله (ذو الحجة ٣هـ / مارس ٦٢٦ م) .

ثم خرج رسول الله ﷺ بنفسه فى غزوة ذات الرقاع ، وهو جبل فى مطالع نجد على نحو خمس عشرة ليلة من المدينة كانت تنزل عنده بطون من أنمار وثعلبة وكانوا أعراباً يُغيرون على الناس فى نواح سادها الأمن والهدوء بعد أن دخلت حلف المدينة وانتشر فيها الإسلام ، فأراد رسول الله ﷺ أن يطمئن من ناحيتها ، وكان رسول الله حريصاً على أن يخرج فى هذه الغزوات بنفسه فيكون لمسيره من الهيبة ما يجذب الناس للإسلام فيدخلوا فيه ، ثم إن قريشاً كانت تسمع بأخبار مسيره فتعلم أنها قِبَلَ رجل دائم الحركة والنشاط فى سبيل دعوته ، فيزداد خوف رؤسائها منه ويتزايد حب غير الرؤساء وإعجابهم به ، فإنهم كانوا يشعرون أن رسول الله واحد منهم ، عِزُّه عزهم وقوته قوتهم ، وكان الكثيرون جداً منهم تواقين إلى الانضمام إلى محمد ﷺ ، ودخول الإسلام لولا هذا النفر العنيد من شيوخهم ، ولم يقتصر ذلك الميل إلى الإسلام على القرشيين ، بل كان هناك عرب كثيرون بلغتهم أنباء رسول الله وما هو عليه من كريم السجايا ، وما تتمتع به أمته من رخاء وقوة وأمان ، فكانوا ينتظرون الفرصة ليدخلوا فى دينه رغباً والتماساً للبركة .

وكان رسول الله فى هذه المغازى يزيد إيمان أصحابه عمقاً ، ويؤكد شعورهم بالولاء للدين والقوة وخلوص النية له والتضحية بالنفس فى سبيله ، ومن دلائل ذلك ما حدث فى غزوة ذات الرقاع تلك : فإن عباد بن بشر كان يَحْرُس المسلمين مع عمار ابن ياسر ذات ليلة ، فاقترب من المعسكر رجل من الأعداء يطلب امرأته وقد كان

المسلمون قد أسروها ، وكان عباد بن بشر يصلى فرماه الرجل بسهم أصابه فلم يقطع صلاته ، ورماه بثانٍ أصابه أيضاً واستمر يصلى ، ثم رماه بالسهم الثالث فأرداه وقد ختم صلاته ، وأدركه عمار بن ياسر وهو ينزع فقال له : « أى أخى : ما منعك أن توقظنى به (أى تنبهنى إليه) فى أول سهم رمى به ؟ قال : كنت فى سورة أقرؤها وهى سورة الكهف ، فكرهت أن أقطعها حتى أفرغ منها ، ولولا أن خشيت أن أضيِّع ثَغْراً أمرنى به رسول الله ﷺ ما انصرفت ولو أُتِى على نفسى» [1]. ولم يمت عباد ، فقد مدَّ الله فى أجله وعاش بعد ذلك .

وكذلك كان ﷺ يرى فى تلك المغازى مناسبة للتبسط فى الحديث مع من لا تتاح له فرص الحديث معه من أصحابه فى المدينة والاسترسال معهم فى بسائط شئونهم ونصحهم ، فهنا فى ذات الرقاع يروى جابر بن عبد الله أحاديث جرت بينه وبين الرسول منها : « إنَّا لمع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من أصحابه بفرخ طائر ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ، فأقبل أبواه أو أحدهما حتى طرح نفسه فى أيدى الذى أخذ فرخه ، فرأيت الناس عجبوا من ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : أتعجبون من هذا الطائر؟ أخذتم فرخه فطرح نفسه رحمة لفرخه ، والله لَرَبُّكُم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه»[2].

ثم تكون غزوة دومة الجندل ، وهى الجوف اليوم ، وهى على نحو ٦٠٠ كيلو متر عن المدينة ، فخرج إليها ﷺ وتجشَّم مشقة الذهاب والإياب (ربيع أول - ربيع ثان ٥هـ / أغسطس - سبتمبر ٦٢٦م) . قال الواقدى : « قالوا : أراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى أدنى الشام ، وقيل له : إنها طرف من أفواه الشام ، فلو دنوتَ منها كان ذلك مما يُفزع قيصر » ، ثم قيل للرسول إن بدومة الجندل جمعاً كثيراً وإنهم يظلمون من مَرّ بهم من الصنافطة (الذين يجلبون الميرة والمتاع إلى المدينة) وكان بها سوق عظيم وتجار، وضوى إليهم قوم من العرب كثير وهم يريدون أن يدنوا من المدينة فقرر الرسول الخروج إلى دومة الجندل ، مما يدل على الآفاق التى كان الرسول يتطلع إليها

(١) الواقدى . مغازى : ١/ ٣٩٧ ، وقد قيل : إن الأنصارى الشهيد عمارة بن حزم .
(٢) الواقدى ، مغازى : ١/ ٣٩٨ .

وهو بعد لم يفرغ من أمر مكة ، والقارىء لهذه التفاصيل يشعر أن أمر مكة ومشركيها لم يكن ليشغل اهتمامه كله.

ثم تكون غزوة المريسيع إلى بنى المصطلق ، وهى غزاة طويلة حافلة بالأحداث والنوازل التى تُستخرج منها الأحكام . ولم تكن منازل بنى المصطلق أو بَلْمُصطلق بالبعيدة عن المدينة ، ولكنها كانت على إحدى الطرق الرئيسية من مكة إلى الشام ، فقد كانوا ينزلون بناحية من ناحية الفُرُع الغنية بالماء ومسايل الماء غير بعيدة عن الصفراء والمسيجيد ، وكان بنو المصطلق بطناً من خزاعة وكانوا حلفاء لبنى مَدْلج ، وكانت خزاعة فى جملتها فى حلف رسول الله ﷺ ، فشذ عنهم سيد بنى المصطلق الحارث بن ضرار وأراد أن يخرج عن الحلف ، ولو تُرك على حاله لخرج جزء من الطريق بين مكة والشام عن سيطرة المدينة ، وهذا ما لم يكن الرسول يريده ، فعجل بالمسير إلى المريسيع ، وكان الحارث بن ضرار رجلاً مغروراً بنفسه ، حَرَّضَ قومه على الخروج فاستجابوا له ، وما نظن أن الحارث كان يجرؤ على المسير إلى المدينة ، فهو وقومه لا يبلغون هذا المبلغ ، ولكن مجرد خروجه عن إجماع قومه كان انحرافاً عن الطريق لا بد أن يُقوَّم .

وجدير بالذكر أن رسول الله عندما أراد أن يستعلم عن أمور خزاعة بعث بُرَيْدة ابن الحُصيب الأسلمى الخزاعى ، وكان هؤلاء الأسالمة أحلافاً لرسول الله ﷺ ، حيث كانوا مثلهم فى ذلك مثل بنى أسلَم (بفتح اللام) ، وكانوا بطناً من بلى بن إلحاف بن قضاعة القديمة ، تفرقوا فى نواح كثيرة من الحجاز حيث استضعفهم الأوس والخزرج فى سهل المدينة . وأساءت استخدامهم قريش ، فلما قامت أمة المدينة سارعوا بالانضمام إليها ، ووجدوا فى ذلك العزة والمنعة إلى جانب الدين ، وقد كان لبنى أسلَم الخزاعيين وبنى أسلَم القضاعيين فى ظل الإسلام دور عظيم .

وكانت غزوة المريسيع فى شعبان سنة ٥ هـ / يناير ٦٢٧ م ، قبل الخندق بثلاثة شهور ، وقد ضرب المسلمون بنى المصطلق ضربة حاسمة بالغة الشدة ، ولم يكن من ذلك بُدٌّ لأن الظروف كلها كانت تنبىء بأن قريشاً لا بد مدبرة أمراً ، وكان لا بد أن يظل أحلاف المدينة فى سلام معها وولاء لها ، وإلا وجدت قريش فى ذلك مجالاً

وسيعاً للإضرار بأمة الإسلام والإفلات من الحصار ، ولكن الرسول بعد أن تحققت له الغاية من ضربة بنى المصطلق بادر إلى التخفيف عنهم ، فأصهر إليهم باصطفاء جويرية بنت الحارث وأداء كتابتها عنها وتزوجها ، فأطلق المسلمون ما كانوا قد أحرزوه من سبى بنى المصطلق .

وقد أفادت المدينة من وراء ذلك النشاط الواسع قوة كبرى ، فاستقر نفوذها فى شمال شبه الجزيرة ووسطها كله ، وهابتها القبائل هيبة شديدة ودخل فى حلفها منها من دخل ، وأسلم من أسلم .

وفى أثناء ذلك كانت قريش فى ضيقها وحيرتها من أمرها ، فإن الحصار عليها شديد ، وهى لم تكسب من معركة أُحُدٍ شيئاً ذا بال ، ثم جاءت حمراء الأسد ثم بدر الموعد فَخَنِسَت وانكمشت فى عقر دارها وساورها الخوف على مصيرها ، ربما للمرة الأولى منذ حرب الفِجَار الثالثة ولكنها لم تكن تستطيع المقام على هذه الحال ، فهى قبيلة كبيرة غنية ذات صيت بعيد وجاه عظيم ، ورجالها أعلام لهم مكانتهم وتجارتهم ، وقد قضت قريش فوق القرن والنصف فى بناء نفسها وبلوغ ذلك المبلغ .

وكان لها نظام قوى صلب وتماسك يقوم على تقاليد وقواعد وعقل وحكمة وتدبير ، وكل ذلك جعل لها جاهاً عظيماً عند العرب وهيبة بالغة فى قلوبهم ، والآن يجدون ذلك كله مهدداً بالزوال ، بل هو يتلاشى يوماً بعد يوم ، وما كان القرشيون بالجبناء ولا قليلى الحيلة ، فما زالت قريش مجتمعة القوة وهى تستطيع الآن أن تضرب ، وفى التأخر مزيد من المضرة بها ولا ريب ، ولا بد لها أن تضرب قبل أن يضيق عليها الخناق وتصبح الحركة عسيرة عليها .

تلك هى مقدمات غزوة الأحزاب التى حوَّلتها حكمة الرسول إلى غزوة الخندق ، وهى آخر محاولة لقريش للوقوف فى وجه أمة المدينة الناهضة ، ولم تكن قريش بالمغامرة فيها ولا المتهورة ، فقد أعدت نفسها أحسن استعداد أمكنها ، وأحكمت أمرها وجمعت أحلافاً أقوياء لهم صالح مباشر فى القضاء على أمة المدينة وأحكمت خطة المسير والتوقيت ، وقاد قواتها مع حلفائها أبو سفيان صخر بن حرب قيادة فيها حزم ومعرفة وذكاء ، ولكن فاتها أن القوة التى خرجت قريش لتقيس نفسها إليها

كانت تفوقها من كل ناحية ، بل كانت قوة من طراز جديد لم تعرفه قريش ولم تكن تتوقعه ، فسواء أكان ذلك متصلاً بطبيعة بناء قوة الإسلام التى خرجت قريش وأحلافها للقضاء عليها ، أم كان متصلاً بنظامها الداخلى لأن العقيدة التى تُوَجِّه رجالها ، والقانون الأخلاقى الذى كان يحكم تصرفات أفرادها ، والأهدافَ التى كانت المدينة تحارب فى سبيلها وطريقة القتال التى دربت نفسها عليها ، فى ذلك كله كانت المدينة تفوق مكة بمراحل كثيرة .

وفوق ذلك كله كانت شخصية قائد جماعة المدينة ومُوجِّه الأمر فيها واتجاهات فكره وأسلوبه فى العمل ، والغايات التى كان يرمى إليها ومستوى العلاقات بين محمد رسول الله وصحابته كباراً وصغاراً ، ثم الولاء المطلق للعقيدة والرسول صلوات الله عليه وسلامه ، فى كل ذلك كانت المدينة تختلف اختلافاً بيناً عن قريش وأحلافها . فهؤلاء يمثلون عصر الجاهلية بكل عقليته وأسلوبه فى العمل وأهدافه ونظرته إلى الحياة ، والمدينة تمثل الإسلام وهو بناء عقيدى حضارى وإنسانى جديد ، وبعبارة واحدة نقول : أمامنا فى معركة الخندق عصر عتيق كان كل ما فيه قد وهن واهترأ وفقد حيويته يحاول أن يقف أمام عصر جديد كل ما فيه جديد ، وهو قوى بـ اب صلب متماسك قام ينشىء لأهل الدنيا كلهم نظاماً جديداً .

هذا عن الصورة العامة للصراع الذى دار بين الجبهتين فى موقعة الأحزاب التى تحولت إلى معركة خندق أو معركة الحصار بتعبير عملى دقيق .

ويتجلى لنا طابع القوة فى تنظيم أمة الإسلام فى ثلاث نواح : الأولى تماسك الجماعة والتفافها حول قائدها وطاعتها له وثقتها فيه . ومن جانبه أيضاً نجد الثقة فى الأمة كاملة ، فهو يصدر الأمر ناظراً دائماً لما فيه صالح الجماعة . ففى سرية أبى سلمة بن عبد الأسد إلى قَطَن (وقد جاءت بعد حمراء الأسد فى المحرم ٤هـ/ يونيو ٦٢٥م) يستدعى رسول الله ﷺ أبا سلمة بن عبد الأسد وكان قد أَبَلَّ من حين قريب من جراح أصابته فى أُحُـد ويقول : « اخرج فى هذه السرية ، فقد استعملتك عليها» وعقد له لواء وقال : « سِرْ حتى تَرِدَ أرض بنى أسد ، فأغِرْ عليهم قبل أن تلاقى جموعهم عليك » فأذعن للأمر وخرج معه طواعية مائة وخمسون من المسلمين فيهم من

المهاجرين من صميم قريش ومن بنى فهر ومن الأنصار ، كلهم أعلام من الصحابة من أهل الدين والورع والبسالة والإيمان المتين .

وأبو سلمة يمضى معهم قائداً مطاعاً ومقاتلاً عارفاً بشئون الحرب ، فهو يصل إلى حيث وجهه الرسول ، فيفرق رجاله ثلاث فرق لتغير على كل أرض بنى أسد : وأوعز إليهم ألا يمضوا فى طلب وألا يبيتوا إلا عنده إن سَلِموا ، وأمرهم ألا يفترقوا ، واستعمل على كل فرقة عاملاً منهم » ، ويقوم كل فريق منهم بما ذهب لأجله ويعودون بالمغنم ، فيمضى بهم أبو سلمة عائداً وبعد سير ليلة يقول : « اقتسموا غنائمكم ، فأعطى أبو سلمة الطائىَّ الدليل (أى الذى دل المسلمين على أرض بنى أسد) رِضاهُ من المغنم ، ثم أخرج صَفِياً لرسول الله ﷺ عبداً ، ثم أخرج الخمس ، ثم قسم ما بقى بَين أصحابه فَوُفُوا سُهمانهم ، ثم أقبلوا بالنَّعَم والشاه يسوقونها حتى دخلوا المدينة» وقد نَفر على أبى سلمة جرحُه القديم بعد العودة إلى المدينة ، ومات منه لثلاث من جمادى الآخر سنة ٤ هـ .

فهذا نظام تام لا يصدر إلا عن رجال لهم ثقة كاملة فى أنفسهم وفى قيادتهم . ورسول الله ﷺ يثق تماماً فى أنهم سيقومون بالمطلوب منهم دون وصاة . ولو كانت دولة عريقة ذات تقاليد عسكرية عتيقة لما سار الأمر فيها بهذا النظام ، فما بالك ونحن فى جماعة حديثة التكوين حرة يحكم أمرها الإيمان الكامل والقدرة الحسنة والتضحية بالنفس فى سبيل الجماعة وعقيدتها .

دُروسٌ وَعِبَر :

ويسأل عمر رسول الله عما سيفعل بأموال بنى النضير ، فيشير رسول الله ﷺ إلى الآيتين السادسة والسابعة من سورة الحشر : ﴿ **وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٧** ﴾[1] وبناء على ذلك كان عمر بن الخطاب

(١) سورة الحشر ٥٩/ ٦-٧ .

يقول : كان لرسول الله ﷺ ثلاث صفايا ، فكانت بنو النضير حبساً لنوائبه ، وكانت فدك لابن السبيل ، وكانت خيبر قد جزأها ثلاثة أجزاء ، فجزآن للمهاجرين وجزء كان ينفق منه على أهله ، فإذا فضل رده على فقراء المهاجرين .

ومع ذلك يعرض رسول الله هذا الأمر - أمر مصير أموال بنى النضير - على المهاجرين والأنصار وكان حريصاً دائماً على أن يتصرف فى شئون الدنيا برأى الأمة ، وكانت الأمة فى نفس الوقت تسترشد بهديه وصدقه وإخلاصه ، ويخير الأنصار بين أمرين : إما أن يشتركوا مع المهاجرين فى نصيب من هذا الغنى ويظل المهاجرون نازلين بمساكنهم التى نزلوا فيها على الأنصار عند هجرتهم ، أو يقسم هذا المال على المهاجرين ويتركوا ما نزلوا فيه من مساكن الأنصار وأموالهم ، فيكون رد الأنصار بل يقسم المال عليهم ويظلوا معنا فى مساكننا ، وذلك أقصى الإيثار ، وهذا دليل على المستوى الأخلاقى الرفيع الذى وصل إليه أهل أمة الإسلام .

وسنرى بعد كلامنا على ما وقع فى غزوة الخندق ، الكثير من دلائل التطور العسكرى ، ولكن نقرأ معاً هذا الخبر التالى عما حدث قبل أن يصدر سعد بن معاذ حكمه فيما يُعمل ببنى قريظة ، قال الواقدى : « وأقبل سعد إلى رسول الله ﷺ والناس حول رسول الله ﷺ جلوس ، فلما طلع سعد قال رسول الله ﷺ : قوموا إلى سيدكم ، فكان رجال من بنى عبد الأشهل يقولون : فقمنا له على أرجلنا صفين ، يحييه كل رجل منا حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ » .

وهذا مظهر عظيم من مظاهر تبجيل القضاء : أن يأمر رسول الله الحاضرين بأن يقفوا جميعاً لسيدهم ، والقاضى عندما يسير لمجلس قضاته ويجلس فيه يكون سيد الحاضرين فى موضع الحكم . ثم يتقدم سعد (وهو مريض) وينظر إلى بنى قريظة ويؤكد لهم أنه سيحكم بما يُرضى ضميره . (وكان بنو قريظة حلفاءه ، وله ولأبيه تعامل وصداقة معهم قبل الإسلام) ثم ينظر إلى رسول الله ويقول: وعلى مَنْ ها هنا مثل ذلك ؟ أى : هل تقبلون حكمى بنفس راضية كما أقر بنو قريظة بأنهم يقبلونه ، فقال رسول الله ﷺ ومن معه : نعم . وهذا من أجمل مشاهد احترام القضاة والقضاء :

رسول الله ومن بعده يَعِدون بأن يرضوا بحكم القاضى ويسلموا به ، ثم يكون الحكم فى بنى قريظة بعد ذلك بما نعرفه جميعاً .

وهذه هى الجماعة التى أنشأها رسول الله ﷺ بهدى من ربه ، فهى جماعة جديدة من كل ناحية ، جماعة منظمة متماسكة متآخية تسير على هدى من عقيدة سامية وتمضى فى آثار أصلح قدوة عرفها التاريخ .

هنا يتجلى لنا كيف كانت الهوة شاسعة بين قريش وأمة المدينة ، وقريش إلى ذلك الحين كانت أعلى من الجزيرة ، حضارة وعلماً ونظاماً وفهماً وترابطاً وإدراكاً لروح الجماعة ومسئوليتها ، فجاءت هذه الأمة على ذلك المستوى الرفيع الذى يفوق كل ما عرفته الإنسانية من تنظيم إلى ذلك الحين ، بل إلى يومنا هذا ، وإذا كان بعض الناس يرون أن الشورى أو ما يسمونه بالديمقراطية هى ميزة العصر ، فقد عرفنا أن الشورى كانت بنص القرآن قاعدة من قواعد التنظيم فى أمة المدينة .

وأضيف إلى ما يعرف الناس من آى القرآن الكريم فى هذا المعنى ذلك الشاهد الجديد آتى به من كلام الواقدى عن غزوة الخندق : فبعد أن خطب رسول الله ﷺ الناسَ عندما سمع بخبر مسير الأحزاب نحو المدينة يقول الواقدى : « وشاورهم رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله يكثر مشاورتهم فى الحرب ، فقال : أنبرز لهم من المدينة أم نكون فيها ونخندقها علينا ، أم نكون قريباً ونجعل ظهورنا إلى هذا الجبل ؟ فاختلفوا . فقالت طائفة : نكون مما يلى بُعاث إلى ثَنية الوداع إلى الجُرف . فقال قائل : ندع المدينة خلوفاً ؟ (أى : خلف ظهورنا) فقال سَلْمان : يا رسول الله ، إنَّا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خندقنا علينا ، فهل لك يا رسول الله فى أن نُخندق؟ فأعجب رأى سلمان المسلمين ، وذكروا حين دعاهم النبى ﷺ يوم أُحُد أن يقيموا ولا يخرجوا ، فكره المسلمون الخروج وأحبُّوا الثبات فى المدينة »[1] .

وهذا مثال من مشاورة الرسول لأصحابه ، فهو هنا يطرح الأمر عليهم ويدعهم يتبادلون الرأى فى حرية تامة ، وعندما اقترح سلمان الخندق - وقد سبق أن ذكره رسول الله - « أعجب رأى سلمان المسلمين » فلم يقتصر الإعجاب هنا على رسول الله

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٤٤٤-٤٤٥ .

بل شمل المسلمين ، أى : أن الرأى كان لما تقرره الجماعة . والحرب كانت أخطر شئون المدينة فى هذه المرحلة من تاريخها ، فإذا كان رسول الله ﷺ يشاور المسلمين فى أهم شىء فما بالك بالعادى من شئون الدنيا ؟ وإذا كان يأخذ برأى أصحابه الذى أجمعوا عليه واتفقوا على تنفيذه معاً ، فكيف يقول ناس اليوم : إن الشورى ليست ملزمة للإمام ؟ . وإذن : فنحن فعلاً أمام أمة جديدة من كل ناحية .

أما قريش فقد ظلت مكانها ، وعندما قررت أن تتصرف وتعمل شيئاً تخرج به من الحصار المضروب عليها وتستعيد به مكانتها فى شبه الجزيرة ، تصرفت على النحو الجاهلى الذى خلَّفته أمة الإسلام وراءها بمراحل شاسعة ، وهو تصرف التظاهر والخداع والكسل مع العجز الظاهر عن معرفة قيمة الوقت ، وكيف يتم الانتفاع به على أحسن الوجوه ؟

انقضى بين أُحُد والخندق أكثر من سنتين هجريتين ، فقد كانت أُحُد فى ١٠ رجب سنة ٣هـ وكانت الخندق فى ذى القعدة سنة ٥هـ ، وكان أمام قريش متسع من الوقت لإحكام أمرها إذا كانت تريد أن تحارب أمة الإسلام فى المدينة وتنتصر عليها ، وكانت تعرف أن هناك قبائل كثيرة حاقدة على المدينة راغبة فى إيذائها ، لأن المدينة كانت قد أصبحت مركزاً عمرانياً زاهراً يفيض بالخيرات ، وإلى جنوبها من ناحية العقيق يمتد حمىً واسع ترعى فيه سوائم الأمة مما يصير لها من الأخماس ، وقد أنشأ هذا الحمى رسول الله ﷺ فى عودة الناس من المريسيع واستعمل عليه بلال بن الحارث ، وحرم الرعى فى حمى النقع على عامة المسلمين إلا المرأة الضعيفة والرجل الضعيف أى الفقير.

وكانت المدينة لا تؤدى إلى أحد من الأعراب إتاوة ، ولا يجرؤ واحد منهم أن يعترض لها عيراً أو يصيب لها شيئاً إلا وجد رجال المسلمين فى إثره ، ولم يتعود الأعراب ذلك وخاف بعضهم خوفاً شديداً ، ثم إن توقف قوافل التجارة ؛ أصابهم بضرر كبير ، ومع ذلك فقد كانوا عاجزين عن المساس بأى شىء للمدينة ، بل كانت تُوجِس خيفة من أن تلقى العقاب الشديد إذا هى فكرت فى القيام بما لا ترضى عنه المدينة ، بما فى ذلك مؤازرة قريش أو الدخول فى حلفها .

يهُود المدينَة وَالإسْلام :

ويستوقف نظرنا أن قريشاً لم تتحرك للعمل إلا بعد أن حرَّكها إلى ذلك المهاجرون من بنى النَّضير إلى خيبر ، عندما نفاهم رسول الله من المدينة حين خانوا العهد بينهم وبينه ودبر واحد منهم اغتياله . فلما استقر المخرَجون من بنى النضير فى خيبر جعل رؤساؤهم دأبهم التدبير على الرسول ﷺ وأمة المدينة ، ثم كوَّنوا وفداً من رؤسائهم وبعض الأوس ممن كان مُعادِياً للإسلام ، ورجال هذا الوفد هم : حُيى بن أخطب ، وكنانة بن أبى الحُقَيق ، وهوذَة بن قيس الوائلى من بنى خطمة ، وأبو عامر الراهب وهو أبو عامر بن عبد عمرو بن صَيفىّ ، الذى سماه المسلمون بالفاسق وكان من بنى ضُبيعة من الأوس ، وذهب رجال هذا الوفد إلى مكة وجالسوا رؤساء قريش وحرضوهم على قتال محمد رسول الله ، وتحالفوا معهم على النصرة فتحمست قريش وقررت الخروج ، ثم ذهب ذلك النفر إلى غَطَفان ودعوهم إلى قتال المسلمين ، «فجعلوا لهم تمر خيبر سنة وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد إذا ساروا ، فأنعمت بذلك غطفان ، ولم يكن أحد أسرع إلى ذلك من عيينة بن حصن »[1] .

والخبر على هذه الصورة غير مقنع ، ويبدو وكأنه مفتعل ، وإن الإنسان ليتعجب كيف أساغ الواقدى هذا التفسير لخروج قريش مع حلفاء لها للحرب مع المدينة ، فإن الذين خرجوا إلى الحرب بناء على هذا الخبر كانوا بنى النضير من اليهود ، فهم الذين حركوا قريشاً ثم غطفان ، ولكننا لا نجد لبنى النضير أو لغطفان بعد ذلك أثراً فى القتال ، حتى ما وعدوا به غطفان من إعطائها تمر المدينة لمدة سنة غير معقول قطعاً ، لأن بنى النضير لا يملكون خيبر إنما هم كانوا لاجئين إليها بعد إخراجهم من المدينة ، ثم إننا لا نعرف إن كانوا قد وفوا بذلك لغطفان بعد الخندق .

وإنما الحقيقة أن قريشاً كان لا بد لها من أن تتحرك لإنقاذ نفسها من الضياع ، فإن تجارتها واقفة وعلاقاتها بالقبائل تضعف وتنقطع وما بنته قريش خلال قرن ونصف يوشك أن يتقوَّض كله ، فلم يكن لقريش بُدٌّ من العمل السريع ، وهى لا زالت تحتفظ بالجانب الأكبر من قوتها وثروتها ، ثم إن ما وهن وَرَثَّ من علاقاتها بالقبائل

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٤٤٣ .

كان من الممكن أن يعود إذا هى خرجت عن ركودها وحزمت أمرها وقررت أن تتفق مع مَنْ يريد من القبائل ، للتصدى لأمة الإسلام .

لا يمكن أن يكون لبنى النضير من دور فى تحرك قريش وأحلافها للخروج لحرب المدينة إلا دور التحريض ، وهذا يستطيعه أى أحد ، وقد فعله قبل ذلك كعب بن الأشرف وأبو رافع وكلاهما من اليهود فلقيا جزاءهما العاجل العادل من أمة الإسلام ، والآن يتحرك بنوالنضير من منفاهم فى خيبر للتحريض على المدينة ويكون لتحركهم أثر بعيد ، وإن كنا لا نستطيع القول أن ذلك التحرك كان هو الدافع المباشر لخروج قريش وأحلافها ، وتجمُّعهم لمهاجمة المدينة فى ذلك الوقت بالذات .

ولكن الواقدى يورد هنا ملاحظة تكشف لنا عن حقيقة هامة من حقائق حياة يهود الجزيرة ، لم يُشِر إليها أحد ممن أنفقوا جهوداً كبيرة فى دراسة موضوع يهود الجزيرة وموقفهم من الإسلام وموقف الإسلام منهم (كما يتجلى من القرآن الكريم) ، ثم موقف أمة المدينة كما يتجلى فيما كان بينها وبين هؤلاء اليهود منذ أن كانت أمة الإسلام فى المدينة .

قال الواقدى راوياً عن رواته : « لما أجلى رسول الله ﷺ بنى النضير ساروا إلى خيبر ، وكان بها من اليهود قوم أهلُ عَدد وجَلَد ، وليست لهم من البيوت والأحساب ما لبنى النضير ، كان بنو النضير سِرَّهم ، وقريظة من ولد الكاهن من بنى هارون ، فلما قدموا أخرج حُيَىّ بن أَخْطَب ، وكنانة بن أبى الحقيق ، وهوذة بن الحقيق وهوذة ابن قيس الوائلى من الأوس من بنى خطمة ، وأبو عامر الراهب فى بضعة عشر رجلاً إلى مكة يدعون قريشاً وأتباعها إلى حرب محمد ﷺ ، فقالوا لقريش : نحن معكم حتى نستأصل محمداً . قال أبو سفيان : هذا الذى أقدمكم ونَزَعكم ؟ قالوا : نعم ، جئنا لنحالفكم على عداوة محمد وقتاله . قال أبو سفيان : مرحباً وأهلاً ، أحبُّ الناس إلينا مَنْ أعاننا على عداوة محمد ..» [1].

وإذن : فقد كان بنو النضير أعلى يهود الجزيرة مركزاً وأكبرهم مقاماً ، ويليهم بنو قريظة فهم من ولد الكاهن (كوهين) من بنى هارون ، فهم على ذلك من أبناء

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٤١ - ٤٤٢ .

الأسباط ، فسبط هارون واحد من الأسباط الاثنى عشر ، فهو هارون والد لوط . ومن المعروف أن يهود المدينة كانوا على نوعين : نوع عبرانيون من بنى إسرائيل أى من بنى الأسباط ونوع عرب تهوَّدوا . وأقوى أولئك الذين تهودوا وأصبحوا فى مستوى اليهود الأصلاء المهاجرين ، بنو ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن امرىء القيس وهم ينحدرون من عمرو مزيقياء رأساً ، فلا هم أوس ولا هم خزرج ، وهؤلاء كانوا سادة المدينة قبل أن يدخلها الأوس والخزرج مقبلين من اليمن .

والأوس والخزرج عندما قدموا دخلوا فى حلف يهود المدينة ، وهم كانوا سادة السهل أولاً ، وكان رئيس ثعلبة هؤلاء الفِطْيَونْ وهو عامر بن ثعلبة .. وكان سيد السهل ، وكان يفرض على كل من نزل فى السهل ما يسمى فى التاريخ القديم باسم ، قانون الليلة الأولى Jus primae noctis ، ومعناه أنه لرئيس الجماعة أن يقضى الليلة الأولى مع كل عروس قبل زوجها إذا أراد ذلك ، وكان هذا عرفاً قديماً جداً عند بعض الجماعات ، ومع أننا نستبعد أن يكون الفِطْيَون عامر بن ثعلبة كان يمارس هذا الحق مع الأوس والخزرج ، إلا أن القصص الشعبى يزعم ذلك ، وينسب إلى مالك بن العجلان شيخ بنى عوف بن الخزرج بن الحارث أنه هو الذى ثار بالأوس والخزرج على سلطان اليهود وحاربهم وانتزع لهم السيادة على السهل ، وأنزل اليهود إلى مرتبة الحلفاء فى السهل . ومالك هذا هو الذى قاد الخزرج ضد الأوس فى حرب بُعاث ، فانضمت اليهود إلى الأوس ، وبفضلهم انتصر الأوس على الخزرج فى بعاث .

ومن ذلك الحين انعقد الحلف بين الأوس واليهود ، وهو حلف سيكون له أثره فى سير الحوادث فى المدينة ، إلا فيما يتعلق بحلف عبد الله بن أُبى بن سلول مع بنى قينقاع أولاً ثم ببنى النضير ، وأخيراً ببنى قريظة ، فلما انتهى أمر هؤلاء انتهى أمر عبد الله بن أُبىّ بن سلول ، ولم يكن فى الخزرج أحد يؤيد اليهود كما كان يؤيدهم عبد الله بن أُبىّ ابن سلول ، وكان اليهود يعتزون بتأييد عبد الله بن أُبىٍّ حتى خذلهم مرة بعد أخرى وتبين لهم أنه لا ينفع فى وقت شدة . وقد كان موقف ابن سلول هذا منفراً لكل أحلاف اليهود من الأنصار ، فنجدهم جميعاً يتبرأون من حلفهم وخاصة بعد الخندق عندما دخلت فى الإسلام مجموعة البطون المسماة بأوس مناة قبل الإسلام ، ثم

أصبحت تسمى أوس الله بعد الخندق ، وهم أمية ووائل وعطية وخطمة وواقف .

ولكننا لا نجد بنى ثعلبة على حال من القوة بعد الهجرة ، فقد دخلوا فى الخزرج ، ثم إننا نلاحظ أن واحداً من كبارهم كان يسمى أبا زيد بن عزرة (أو عزرا) بن عمرو ابن أخطب بن محمود ، وهو من أحفاد الفِطْيون . وآل أخطب كانوا من رؤساء بنى النَّضير ورئيسهم حُيى بن أخطب ، وهو والد صفية أم المؤمنين .

وهذا كله يلقى ضوءاً جديداً على ما كان بين الرسول ﷺ وبنى النضير بعد موقعة أُحُد ، فقد كانوا شديدى العداوة للإسلام والغيرة منه ، وبعد أن انصرف المشركون بعد أُحد أراد الرسول أن يستعين بشىء من المال منهُم ، فقد دفع عنهم وحمى لهم منازلهم وأموالهم ، ولكنهم تنكروا له ودبروا قتله مما انتهى بإخراجهم من المدينة ، وقد خرجوا تاركين أموالهم وبيوتهم ونخلهم ولكنهم تكلفوا تجلداً غريباً : « وحملوا النساء والصبيان ، فخرجوا على منازل بلحارث بن الخزرج ، ثم على الجبلية (موضع بالمدينة) ثم على الجسر ، ثم مروا بالمصلى ، ثم شقوا سوق المدينة ، والنساء فى الهوادج عليهن الحرير والديباج ، وقُطُف الخز الخُضْر والحُمر ، وقد صَفَّ [1] لهم الناس ، فجعلوا يمرون قطاراً فى إثر قطار فحُمِلوا على ستمائة بعير . يقول رسول الله ﷺ : هؤلاء فى قومهم بمنزلة بنى المغيرة [2] فى قريش » [3] .

وجعل بعض المسلمين من أمثال حسان بن ثابت ، يتحسرون على ذهابهم ويذكرون مآثره لهم ، ووقف الضحاك بن خليفة يشهدهم ، ثم قال وهو يراهم خارجين : « واصباحاه ، نفسى فداؤكم ! ماذا تحملتم به من السؤدد والبهاء والنجدة والسخاء ؟ » [4] ونُعيم بن مسعود الأشجعى قال فى نفس الموقف : « فِدَى لهذه الوجوه التى كأنها المصابيح ظاعنين من يثرب ! مَنْ للمُجْتَدى الملهوف ؟ ومن للطارق السَّغْبان ؟ ومن يسقى العُقَار ؟ ومن يطعم الشحم فوق اللحم ؟ ما لنا بيثرب بعدكم مقام ! » [5] فيرد عليه أبو عبس بن جبر : « نعم . فالحقهم حتى تدخل معهم

(١) أى : اصطفوا .
(٢) بنو المغيرة هم بنو مخزوم .
(٣) الواقدى ، مغازى : ١/ ٣٧٤ - ٣٧٥ .
(٤) الواقدى ، مغازى : ٣٧٥ .
(٥) الواقدى ، مغازى : ٣٧٥ .

النـار »[1] ثم يقول الواقـدى : « مـروا يضربون بالدفـوف ويزمـرون بالمزامير ، وعلى النساء المعصفرات وحُلى الذهب ، مظهرين ذلك تَجَلُّداً . قال : يقول جبار بن صخر : ما رأيت زَهَاءهم لقوم زالوا من دار إلى دار ، ونادى أبو رافع سلام بن أبى الحقيق ، ورفع مسك الجمل وقال : هذا مما نُعِده لخفْض الأرض ورفعها ، فإن يكُنْ النخل قد تركناها ، فَإنَّا نَقْدُم على نخل بخيبر »[2] ...

من هنا نفهم ولو جانباً من جوانب اعتداد بنى النضير بأنفسهم واستعادتهم بعض قوتهم بعد أن استقروا فى خيبر ، ثم اجتهادهم فى تأليب الناس على أمة المدينة ، فإن أبا رافع سلام بن أبى الحُقيق الذى زعم أنه يعتد بما خرج به قومه من ذهب وفضة وخَزٍّ ويقول : إنه يعد ذلك لخفْض الأرض ورفعها ، هو ابن عم كنانة بن أبى الحُقيق أحد الساعين فى تأليب القرشيين ثم غطفان على رسول الله ﷺ ، فبنو النضير كانوا منذ خرجوا مزمعين الانتقام من أمة المدينة حاسبين أنهم سيعودون إلى الانتصار بفضل مالهم الذى أطلقه لهم رسول الله ﷺ ، وظنوا أنهم يُخْفِضُون الأرض ويرفعونها به .

وكان معهم فى ذلك التأليب هوذة بن قيس الوائلى من الأوس من بنى خطمة ، والغالب أنه كان يهودياً ، فإن هوذة تعريب يهوذا وخطمة وهم بنو جُشم بن مالك بن الأوس ، كانوا من أوس مناة الذين لم يسلموا إلا بعد الخندق ، وكان رئيس أوس مناة أبا قيس بن الأسلت الشاعر وهو من بنى وائل ، ولم يسلم إلا بعد الخندق فأسلم بقية أوس مناة بإسلامه وأصبحوا يسمون أوس الله كما ذكرنا .

وكان مع أولئك المؤلبين على المسلمين ، أبو عامر عبد عمرو أو عمرو من بنى عمرو بن عوف بن قيس الذى يقال إنه كان قد تنصر وسُمِّى بالراهب ، وقد سماه المسلمون بأبى عامر الفاسق ، وهو شخصية كأنها الشَّبح معادية للإسلام أشد العداوة فى غير طائل ، فقد أكل قلبه الحسد من محمد صلوات الله عليه عند الهجرة وانتشار الإسلام ، فخرج إلى مكة وانضم إلى الكفار ، وكان له أثر سىء فى أُحُد ، ثم يختفى ليظهر الآن بين المؤلبين على رسول الله ، ثم يختفى بعد ذلك كأنه غرق فى ليل التاريخ ،

(١) الواقدى ، مغازى : ٣٧٥ .
(٢) الواقدى ، مغازى : ٣٧٥ .

وإن كان ذِكْره قد بقى فى ابنه حنظلة بن أبى عامر من شهداء أُحُد وهو حنظلة الغسيل الذى غسَّلته الملائكة ، وهو الذى عناه أبو سفيان فى خطابه لرسول الله ﷺ « حنظلة بحنظلة » ، فهو الأول ، أما الثانى فحنظلة بن أبى سفيان نفسه وكان قد قُتِل فى بدر .

ولكن الذى يستوقف النظر هو أن هؤلاء المؤلبين جميعاً - بما فيهم رجال بنى النضير - يختفون بعد ما كان منهم من التحريض والتأليب ، فلا نجد لهم فى قتال الخندق اسماً ولا ذكراً .

قُريش وَأحلافها يَسيرونَ إلى المدينَة :

وإذن فقد تحركت قريش بعد طول انتظار ، ولكنها إذ تحركت لم يظهر عليها ما يدل على أنها تعلمت من الماضى شيئاً ، فبينما كانت أمة الإسلام قد دخلت فى عصر جديد من الانتظام والتماسك وإحسان التدبير والإعداد لكل شىء ، ظلت قريش قبيلة جاهلية تخرج للقتال بالإبل والخيل والأموال وتجمع الحلفاء والأنصار وتسير بغير نظام ، ولو أن رجال قريش تعلموا من رسول الله شيئاً لاستدعوا حلفاءهم وتدارسوا خطة العمل ، ورتبوا صفوفهم وقسموا مسئولياتهم وعرفوا كيف سيهاجمون المدينة . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، ولم يكن من الممكن فيما نعتقد أن يحدث ، فهذه جماعة تَخَشَّبت أو تحجرت على ما هى عليه ، وقد سبق أن عرضنا لذلك التحجر ، ونضيف الآن أن من أسبابه الخيلاء والكبرياء ، فهؤلاء سادة بدو ، يخرجون للقتال سادة ويلاقون الموت سادة ، وتلك هى خيلاء الجاهلية وكبرياؤها ، وقد كانت مقبولة مستحسنة بمقاييس الجاهليين قبل الإسلام كما نرى فى تفاصيل أيام العرب ، ولكن الإسلام جاء بفكر جديد وقيم ومقاييس جديدة بهتت إلى جانبها كل صور الجاهلية حتى ما كان منها مستحسناً قبل ذلك .

ولكننا نحس شكاً وتخوفاً فى قول أبى سفيان لمن جاءوا يعرضون الحلف عليه لقتال الإسلام : « هذا الذى أقدمكم ونزعكم ! » وفيه كذلك شىء من السخرية بأولئك القوم ، وهى سخرية معقولة من رجل مثل أبى سفيان الذى كان يختلف اختلافاً كبيراً عن بقية رؤساء قريش ، فهذا الرجل كان وثنياً ولكنه كان بارد المزاج

لا يكاد يؤمن بشيء ، وهو واقعى مادى ، يحسن النظر لنفسه ولمصالحه دون نظر إلى حماس أصحابه من زعماء القرشيين وغرورهم ، وهو دون شك كان أوسع ذكاء من كل زملائه ، وذكاؤه هذا هو الذى أنقذ قريشاً وجنَّبها تصادماً لم يكن محمد ﷺ راغباً فيه .

وسياق الأخبار بعد ذلك يترك فى النفس أشياء كثيرة ، فالنصوص تقول : إن قريشاً أخرجت لحلفائها خمسين من رجالها ودخلوا جميعاً تحت أستار الكعبة وألصقوا أكبادهم بها وتعاهدوا على قتال محمد ﷺ حتى الموت ، وانظر مثلاً إلى الفقرة التالية : على لسان بعض زعماء قريش « قد جاءكم رؤساء يثرب وأهل العلم والكتاب الأول ، فسلوهم عما نحن عليه ومحمداً ... » فأما أن اليهود الذين جاءوا وكلهم من بنى النضير كانوا أهل العلم بالكتاب فى نظر القرشيين فمعقول ، ولكن أكان هوذة بن قيس الوائلى وأبو عامر الراهب رؤساء أهل يثرب ؟ .. ربما إذا قلنا إن هؤلاء هم الذين بقوا على الكفر من أهل يثرب ، وسنلاحظ فيما بعد أن بطون أوس الله جميعاً لن تحرك ساكناً ، بل لن يُسمع لها صوت طوال قتال الخندق .

وبعد ذلك نجد القرشيين يسألون اليهود وكأنهم فى حيرة من أمر الإسلام ، أو كأنهم لم يتأملوا مرة فى آية واحدة من القرآن ، وإلا فانظر الحجج التى يدلون بها ليعرفوا إذا كانوا هم على الدين الصحيح أم الدين الذى يدعو إليه محمد هو الصحيح: فهم يسألون من أتاهم من اليهود « أنتم أهل الكتاب الأول والعلم ، أخبرونا عما أصبحنا نحن فيه ومحمد ، فنحن عمار البيت ، وننحر الكلوم ونسقى الحجيج ، ونعبد الأصنام » وهذا الوصف لديانتهم سواء أكانوا قد قالوه حقاً أم لم يقولوه فهو يصور واقعهم ومفهومهم للدين ، وهذا المفهوم كله مظاهر عبادات لا عبادات . اسم الدين ولا دين ، فهم يعمرون البيت أى يعتنون بالكعبة وما حولها ، وينحرون الذبائح ويسقون الحجيج ، ويعبدون أصنامهم عبادة زائفة لا قلب فيها ولا إيمان ، كلها ظواهر ومظاهر يقومون بها تأييداً لجاههم مرة ووسيلة لكسب المال تارة أخرى ، وهنا يكمن الفارق الشاسع بين ما كانوا يحسبون أنه دين ودين محمد ، فدين محمد إيمان كامن فى القلب وصادر عنه ، وعبادات هى الشكل المنظور لفضائل ومكارم وقانون

أخلاقى يتجه إلى خير الناس أجمعين ، فهو يسوى بينهم ويعطف غنيهم على فقيرهم ويجعل منهم أمة واحدة ، متآخية متعاونة تؤمن بالله سبحانه ورسوله ﷺ ، هذا هو الذى لم يفهمه هذا النفر من زعماء قريش قط ، وهو سبب شقوتهم وسبب هذه الأزمة التى كانوا يعانونها .

وانظر إلى أولئك اليهود والمفروض أنهم أصحاب دين سماوى ويعرفون أن الدين الحقيق بهذا الاسم ، يبدأ قبل كل شىء بالإيمان بالله الواحد سبحانه ، وهم فى إجابتهم على أسئلة القرشيين يكذبون على أنفسهم ويخدعون غيرهم ويصدق عليهم قول الله تعالى فى القرآن الكريم فى سورة البقرة (آية ٩ وما بعدها) ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠ ﴾ [البقرة] والخط الذى وضعناه تحت الآية العاشرة من سورة البقرة هو أوضح تفصيل لحالة يهود بنى النضير وما كانوا يفعلون .

ويذكر علماء أسباب النزول أن هذه هى المناسبة التى أنزل الله فيها الآية ٥١ من سورة النساء : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ [النساء] وفى هذا الموقف نجد صفوان بن أمية معارضاً بعض الشىء لزعامة أبى سفيان ، وذلك طبيعى ، فصفوان بن أمية بن خلف مقروح ، فقد قُتِل أبوه أمية بن خلف سيد قومه بنى جمح المعروف بالغطريف فى موقعة بدر ، وفى نفس اليوم قُتِل أخوه على بن أمية بن خلف ، وفى موقعة أحد قُتِل عمه أُبَى بن خلف .

وبعد مقتل أبى جهل كان صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو يمثلان الجبهة الجامدة الحاقدة من قريش ، فى حين كان أبو سفيان صخر بن حرب يمثل ناحية الخبث والمكر والدهاء والواقعية والبرود . وصفوان يقول فى هذه المناسبة : « يا معشر قريش ، إنكم قد وعدتم هؤلاء القوم لهذا الوقت وفارقوكم عليه ، ففُوا لهم به لا يكون هذا كما كان: وعدنا محمداً بدر الصفراء فلم نَفِ بموعده ، واجترأ علينا بذلك ، وقد كنت كارهاً لميعاد أبى سفيان يومئذ » .

نجحت إذن جماعة بنى النضير ومن معها فى تشجيع القرشيين على الخروج ،

وليست لدينا تفاصيل عن استعدادهم وتعبئتهم كيف كانت ، ولكنهم على أى حال أوعبوا وخرجوا هم وأحابيشهم بأقصى ما يستطيعون من قوة ، فكان جمعهم أربعة آلاف سيرد تفصيلهم فيما بعد .

ومن مكة وقريش اتجه نفر المؤلبين إلى بنى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة ابن قيس عيلان . وهؤلاء بنو سليم كانوا من صميم البدو وأكثرهم جفوة ، وإن لم يعدلوا فى ذلك غطفان أو هوازن . وكانت منازل بنى سليم فى مواضع متفرقة شرقى جبل السراة ، ولكن كتلة كبيرة منهم كانت تنزل على طريق التجارة من مكة إلى العراق ، وكان بنو سليم هؤلاء إحدى بطون البدو الضاربة فيما بين جبل السراة ، ومطالع نجد ، وكانوا يروحون ويجيئون فى نواحى الحجاز ، فيما بين مكة والمدينة شمال المدينة يرون ذلك حقاً لهم ، فلما قامت أمة الإسلام عمل رسول الله ﷺ على إخضاع الداخلين منهم فى أرض الحجاز لسلطان الأمة ، فغزاهم مرتين ، مرة فى غزوة قرقرة الكدر ، وهى موضع معدن أى موضع كانت فيه بعض خامات معدن أى حديد ، على ثمانية برد من المدينة ، والبريد فرسخان [1] والفرسخ ثلاثة أميال ، فالمسافة إذن ٤٨ ميلاً عربياً ، والميل العربى طوله نحو ١٨٠٠ متر ، فالمسافة على ذلك ٨٥ أو ٨٦ كيلو متراً ، وكانت غزاة الكدر بعد بدر بقليل فى المحرم ٣هـ/ يوليو ٦٢٤م .

وقد هرب بنو سليم أمام المسلمين تاركين جانباً كبيراً من نَعَمهم ، فغنم المسلمون ٥٠٠ بعير ، فآلمت هذه الضربة بنى سليم ومن كان معهم من غطفان ، ثم قصد المسلمون منزلاً آخر من منازلهم فى بحران وهو موضع بناحية الفرع على الطريق الجانبى من مكة إلى المدينة ، وهذه المرة أسرعوا بالهرب فلم يؤخذ منهم شىء ، ولكن بنى سليم أدركوا أن الحجاز وما بين مكة والمدينة بصفة خاصة ، لم يعد كلأً مباحاً لهم يلجونه كيف شاءوا ، وهذا شىء جديد بالنسبة لأولئك البدو ، فحقدوا على المدينة ، وما كادت جماعة المؤلبين تؤكد لهم أن قريشاً خارجة لقتال محمد رسول الله حتى انضم إلى ذلك الحِلْف غير المقدس .

(١)هذا كان طول البريد فى شرق الدولة الإسلامية ، أما فى غربها الشام ومصر وما يليها غرباً أربعة فراسخ . والمعروف أن البريد مقياس قبسه العرب من الرومان ولفظه عندهم Veredus وطوله محطتان من محطات الطريق .

وانضم إليهم عيينة بن حصن وقومه من فزارة وهى بطن من ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان ، وكان رسول الله ﷺ يلقبه بالأحمق المطاع ، وكان عماده الحقيقى على خيبر ويهودها ، فلما غزا رسول الله خيبر واستولى عليها ، انكسر عيينة وأصبح أحمق فقط ، إذ لم يعد له سلطان ولا طاعة على أحد ، ومع ذلك فقد كان الرسول يتجافى عن أخطائه ويفتح له باب العودة إلى حلف المدينة ، ثم استعمله أخيراً فى كسر غرور أعراب آخرين أقوى منه وأعنف وهم بنو تميم ، أضخم جماعات الأعراب الضاربين حول نجد ، وكان عيينة قبل الخندق شديد الخوف من رسول الله ﷺ ، مع أنه لم يغز غطفان إلا مرة واحدة فى غزوة ذى أمر ، ولم يكن الفزاريون هم المقصودين فى هذه الغزاة ، بل ذهبت الغزوة لتأديب بنى ثعلبة ومحارب (ربيع الأول ٣هـ/ ٦٢٤م) .

وكان بيان جماعة قريش ومن خرجوا بها إلى الأحزاب كما يلى :

- قريش وأحابيشها	٤٠٠٠ مقاتل ، منهم ٣٠٠ فارس. قائدهم أبو سفيان ، و ١٠٠٠ بعير.
- سليم بن منصور	٧٠٠ مقاتل يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب.
- أسد بن ربيعة بن نزار	يقودهم طلحة بن خويلد الأسدى ، ولم تحدد النصوص عددهم.
- فزارة	١٠٠٠ مقاتل يقودهم عيينة بن حصن .
- أشجع بن ريث بن غطفان	٤٠٠ مقاتل يقودهم ابن رخيلة أو رجيلة

فمجموع من خرجوا للهجوم على المدينة يقاربون العشرة آلاف إذا افترضنا أنه لا بد أن يكون قد انضم إلى هذا الجمع نفر من الأعراب وشذاذ البوادى ، ومهما كان الرأى فى تكوينها فهذه قوة ضخمة بالنسبة لجزيرة العرب فى تلك المدة . ومن هذه القوة عدد لا بأس به من الفرسان ، فقريش وحدها كان معها ٣٠٠ فرس وفارس ، ولا بُدَّ أن الأعراب الآخرين كان لهم فرسان ، بل إن معظم محاربى الأعراب كانوا من

الفرسان ، لأن حربهم هى الضربات السريعة ثم الفرار ، وهذا لا يتيسر إلا بخيل . أضف إلى ذلك أن بلاد أولئك الأعراب هى بلاد الخيل : بلاد الأعالى والرمال والدهاس والعشب الكافى للخيل ، فهنا أعالى نجد وهى من نوع من أعظم خيول الدنيا ، وهنا تجود الأفراس فى أكثر البيئات الطبيعية مناسبة لها .

وسنرى أن رسول الله ﷺ بعد الخندق وقريظة يرسل جماعة ليشتروا للمدينة خيلاً من نجد يطلقها فى الأحياء ، وهنا يحدث التطور العسكرى الحاسم فى التاريخ الحربى للمدينة ، إذ إنها ستصبح بهذه الخيل قوة ضاربة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الجزيرة ، وسيُحدث فرسان أمة الإسلام مع الفتوح الإسلامية الكبرى أعظم تطور فى تاريخ العسكرية فى الدنيا : قوة الخيل العربية الصغيرة الحجم نسبياً ، البالغة القوة ، السريعة الجرى ، الطيعة فى يد الفارس الشجاع التى تتحول مع فارسها إلى كائن حى واحد له ذكاء الإنسان وقوته وإيمانه - فى حالتنا هذه - وقوة الحصان وسرعته وعصبيته واندفاعه ، « كجلمود صخر حَطَّه السيل من عَلِ » كما يقول امرؤ القيس فى وصفه فرسه ، وامرؤ القيس كِنْدى من أطراف نجد ، وكذلك حصانه ، هنا نصل إلى عمق جديد فى إدراك معانى الشعر الجاهلى ، ونصل فى نفس الوقت إلى شأو بعيد فى فهم الفتوح الإسلامية الكبرى.

وقوة كهذه كان لا بد لها من تنظيم وترتيب وخاصة فى السلاح والأزواد والماء للناس والخيل ، وكان لا بد كذلك من إنشاء قيادة أو هيئة مشتركة من أولئك الرؤساء ورجالهم حتى يمكن تحويل تلك الوحدات العسكرية إلى جيش واحد له قيادة وخطة وتزويد منظم وكافٍ بالطعام والماء ، وكان لا بد من ترتيب أمر الخيام والخدم والآنية والأسلحة الاحتياطية وما إلى ذلك مما لا تستغنى عنها جيوش بهذا الحجم . ولم يفكر أحد من القرشيين وحلفائهم فى شىء من ذلك فيما نعلم ، فكانت النتيجة أن هذه القوة كلها لم تكوِّن جيشاً واحداً أو قوة ضاربة واحدة كما تقول . بل ظلت جماعات من المغيرين تتحرك وتعمل بلا خطة ولا نظام ، وقاست من قلة الطعام ومن صعوبة الحصول على الماء ، وقضت على ما بقى من عزم رجالها فى النهاية أعاصير هبت ودامت أياماً ، والأعاصير فى ناحية مثل العقيق والغابة وزغابة شمال غربى المدينة -

حيث نزلت تلك القوات - وكانت أقل عنفاً وخطورة من الرياح فى الرمال السافية ، ومع ذلك فإن الرياح عندما هبت واستمرت أياماً ، أسرع حلفاء قريش بالرحيل ثم رحل القرشيون أنفسهم منهزمين فكان انهزامهم هذا إعلاناً بعجز قريش وتفوق أمة المدينة عليها فى كل ناحية ، وفى معركة الخندق تحدد مصير قريش ومصير أمة الإسلام أيضاً .

أما فى أمة المدينة فقد كان الأمر على خلاف ذلك من كل ناحية ، فهنا جماعة من المؤمنين أصحاب إيمان واحد وفكر واحد ، وهم لا يقاتلون دفاعاً عن حشاشات أنفسهم أو عن حرمهم فحسب بل يقاتلون فى سبيل عقيدة ، وأقصى أمانى الواحد منهم أن يستشهد فى سبيل عقيدته وأمته .

وهنا رياسة حكيمة بعيدة النظر لا يخيفها شىء ، والقائد هنا هو رسول الله ﷺ ، وهو ليس قائد جيش بل قائد إيمان وهو هَادٍ إذا استعملنا اللفظ القرآنى فى وصفه ، ثم إنه لا ينفرد برأيه بل هو يشاور أصحابه ، ويحب أن يشاورهم ويأخذ بالرأى السليم إذا جاء من أحدهم . وفكرة الخندق بالذات التى يسَّرت على المسلمين دفع الكفار ، خطرت ببال رسول الله ولكن الذى وضعها موضع الشورى مسلم كان حديث العهد بالإسلام إذ ذاك ، وهو سلمان الفارسى . ومن دلائل تقدير الرسول ﷺ لأصحابه وآرائهم أنه قَبِل الفكرة وقام على تنفيذها بأسلوبه الرفيع فى التوجيه والتنظيم، فعرف كيف يجعل أصحابه ينفذون فكرة الخندق على نحوٍ أعجز المهاجمين أمامه وأدى فى النهاية إلى فشلهم وارتدادهم منهزمين .

والخطوة الأولى فى تنفيذ فكرة الخندق كذلك تدارسها مع أصحابه ، فعرفوا فى أناة وحزم ، كيف يحفرون الخندق ويحددون اتساعه وعمقه على نحو يحول بين الخيل وبين القفز فوقه ، والخطوة الثانية كانت تحديد مكان الخندق وامتداده ، فإن الخندق لم يكن يدور حول سهل المدينة كله . فهذا لم يكن ميسوراً ، وإنما جمع الرسول ﷺ بين حفر الخندق فى الجبهات المفتوحة المكشوفة من المدينة وتحصين البيوت وتشبيكها بعضها ببعض فى بقية المواضع ، ثم جعل لنفسه قيادة مركزية فى لحف جبل سلع أو ربما إلى شماله ، وأنشأ مركز رقابة فوق الجبل جعل فيه أبا بكر الصديق ، ثم نظم أصحابه فِرَقاً

مقاتلة من الفرسان والرجالة ، بعضها ثابت وبعضها متنقل ، وتخير من رجاله نفراً من أهل اليقظة والسرعة والبسالة والمعرفة بشئون الحرب وجعلهم على رأس فرق سريعة التنقل flying units أو فرق تقوم بالمهام الشاقة Task forces، وقد أحسن إعداد هذه الفرق وأدارها بحساب وحزم وتدبير محكم ، وجعل عليها شباباً من خيرة المسلمين من أمثال : عباد بن بشر ، ومحمد بن مسلمة ، وأُسيد بن حضير ، وجابر بن عبد الله وأشباههم من شبان المسلمين وأنجادهم .

ولكن أكثر ما دفع الناس إلى العمل والاستبسال فيه والحرص على سلامة الخندق هو عمل رسول الله ﷺ مع الناس فى كل مرحلة من مراحل العمل ، ومبادرته إلى القتال والحراسة وتنبيه الناس وتوجيههم فى كل حين ، حتى كان يستغرق فى النوم إذا مس جسده الأرض أو اتكأ على حجر . قال ابن أبى سبرة عن بعض رواته ممن رأوا النبى ﷺ أثناء هذه المعركة الطويلة التى استمرت عشرة أيام وربما أكثر : وكان رسول الله ﷺ يدع الغلمان والصغار يعملون مع المسلمين قال : و « لما لَحَمَ الأمر ، أَمَرَ من لم يبلغ أن يرجع إلى أهله إلى الآطام مع الذرارى ، وكان المسلمون يومئذٍ ثلاثة آلاف . فقد كنت أرى رسول الله ﷺ وإنه ليضرب مرة بالمعول ومرة يغرف بالمسحاة التراب ، ومرة يحمل التراب فى المكتل ، وقد رأيته يوماً بُلغ منه ، فجلس رسول الله ﷺ ثم اتكأ على حجر على شقه الأيسر ، فذهب به النوم . فرأيت أبا بكر وعمر واقفين على رأسه يُنحِّيان الناس أن يمروا به فينبهوه وأنا قربت منه ففزع ووثب فقال : ألا أفزعتمونى ! فأخذ الكرزن يضرب به وإنه ليقول ... »[1] .

بل كان يستريح فى خيمته لحظة من الوقت ثم يسمع هيعة فينهض ويضع درعه وسلاحه ويمضى للقتال ، فإذا زال الخطر عاد إلى راحته حتى يسمع صوتاً فينهض مرة أخرى ، وفى مرة يعود إلى قبته راضى النفس وهو يقول : « رجعوا مغلولين ، قد كثرت فيهم الجراحة ، ثم صلى بأصحابه الصبح وجلس . فكانت أم سلمة تقول : قد شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف - المريسيع وخيبر ، وكنا بالحديبية ، وفى الفتح وحنين - وذلك أن - لم يكن من ذلك شىء أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٤٥٣.

من الخندق . وذلك أن المسلمين كانوا فى مثل الحَرَجة ، وأن قريظة لا نأمنها على الذرارى ، والمدينة تُحرس حتى الصباح ، يُسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفاً ، حتى ردهم الله بغيظهم لم ينالوا منهم [وكفى الله المؤمنين القتال]» [1].

وكانت لدى المسلمين خيل ربما بلغت العشرة ، ولكن طعامها كان قليلاً ، ثم إن القتال دون الخندق يحتاج إلى نَبْلٍ ورماة ، وكان النبل قليلاً فاستعان المسلمون بالحجارة ، جمعوها وسوَّموها حتى صارت تلالاً ، وصاروا يرمون بها فى توفيق كبير .

هذا عن جبهة المسلمين ، تلك القوة التى كان على المكين وحلفائهم أن يتغلبوا عليها ، فماذا فعلوا ؟

نلاحظ بادى ذى بدء أن جماعة ممن كانوا قد اتفقوا مع قريش على المسير لم يواصلوا السعى إلى النهاية ، وعادوا إلى ديارهم بعد أن قال لهم رئيسهم قولاً عظيم المعنى بالنسبة لنا فى هذا المقام « وخرج الحارث بن عوف يقود قومه بنى مرة (بن الحارث بن عوف) ، وهم أربعمائة . لما أجمعت غطفان السير أَبى الحارث بن عوف المسير وقال لقومه : تفرقوا فى بلادكم ولا تسيروا إلى محمد ، فإنى أرى أن محمداً أمره ظاهر لو ناوأه من بين المشرق والمغرب لكانت له العاقبة ، فتفرقوا فى بلادهم ولم يحضر واحد منهم ، وهكذا روى الزهرى وروت بنو مرة »[2] وقد رجح الرواة أن بنى مرة لم يرتدوا ، وإنما اشتركوا مع الأحزاب .

بَنو قريظة يَنقضُون العَهْد :

ولا ندرى على وجه التحديد متى كان نقض بنى قريظة للعهد مع رسول الله ﷺ ، والغالب أن ذلك كان بعد تمام الخندق ، ومعرفة الأحزاب أن الخندق يحرز دور بنى قريظة ، ولو أحرزها ووقف حرس المسلمين دون الخندق من ناحيتهم ، وهى الركن الجنوبى الشرقى من سهل المدينة فيما بين وادى مهزور لما فكر اليهود فى الانقلاب على المسلمين كانت بقية هذا الركن قد صارت لأمة المدينة بعد إجلاء بنى قينقاع وبنى النضير .

(١) الواقدى ، مغازى ٢/ ٤٦٧- ٤٦٨ .
(٢) الواقدى ، مغازى ٢/ ٤٤٣ .

ويُفهم من النصوص أن انقلاب بنى قريظة جاء مفاجأة للمسلمين وأن رسول الله ﷺ عندما بلغه الأمر أرسل السعدين : سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ، وأُسيد بن الحضير إلى بنى النضير لإقناعهم بالبقاء على العهد ، فأبى بنو قريظة من ذلك ، وكان حُيى بن أخطب رئيس بنى النضير وأكبر المؤلِّبين على المسلمين ، قد استطاع أن يقنع كعب بن أسد القرظى رئيس بنى قريظة بقطع العهد مع المسلمين . فأما سعد بن عبادة فكان من بنى بلحارث من الخزرج ، وأما سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير فمن بنى عبد الأشهل من الأوس ، فلم يُوفّق هذا الوفد فى إقناع كعب بن أسد القرظى بتغيير موقفه ، وهذا غريب لأن ذلك الرجل كان شديد التمسك بالعقد مع المسلمين أول الأمر ، وكان يشعر بالرهبة والخوف من المسلمين ، بعد ما رأى من استعدادهم وإقبالهم على حفر الخندق والاجتهاد فى الحراسة والاستعداد للحرب ، فقد قال بعد أن بذل حيى بن أخطب أقصى ما استطاع فى إقناعه ، وأكد له أن عشرة آلاف من قريش وكنانة « (بنى أسد بن خزيمة بن مدركة) وغطفان قدموا لمهاجمة المدينة ولكن كعب بن أسد القرظى كان خائفاً ، ولهذا فقد كان رده الأول عندما دعاه حيى بن أخطب : ويحك ، جئتنى والله بِذُلِّ الدهر وبسحاب يرعد ويبرق وليس فيه شىء ، وأنا فى بحر لُجِّيٍّ ، لا أقدر على أن أريم دارى ، ومالى معى والصبيان والنساء فارجع عنى » ولكن يبدو أن زعماء اليهود الآخرين فيما عدا الزبير بن باطا كانوا ميالين إلى الانضمام إلى الأحزاب وفعلاً صارحوا حُيياً بهذا ، والغريب أن هذا الرجل بعد أن قرر نقض العهد كشف وجهه عن عداوة شديدة ، فدعا بالكتاب الذى كتبه رسول الله ﷺ بينهم فشقه حُيى » وقد توقع الزبير بن باطا الشر وأنذر بهلاك اليهود ولكنه بقى مع قومه .

تلك كانت فرصة كبيرة لقريش وحلفائها لو أنها وقفت بالفعل كما تقول النصوص إلى جانب قريظة ، فمن الواضح أن بنى قريظة نقضوا العهد - وما كان رسول الله لينقضه دون داع وهو فى حاجة إلى سكون اليهود ووفائهم بعهدهم .

وما كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه لينقض عهداً بينه وبين قوم ما داموا يقيمون عليه ، ثم إن وجود الأحزاب حول المدينة لم يكن يؤدى إلى أى تغيير فى

العلاقات بين أمة المدينة ويهود بنى قريظة ، خاصة وأن ناحيتهم لم تكن محمية بخندق، وقد بلغ الرسول أن حُيياً بعد أن نقض العهد أرسل إلى قريش يطلب إليهم أن يبعثوا بألف رجل يغيرون على المدينة ، وكذلك إلى غطفان ، ورسم أن تكون الغارة ليلاً ، فجاء رسول الله ﷺ الخبر بذلك فعظم البلاء فكان رسول الله ﷺ يبعث سلمة بن أسلم بن قريش الأشهلى فى مائتى رجل ، وزيد بن حارثة فى ثلاثمائة يحرسون المدينة ويُظهِرون التكبير ومعهم خيل المسلمين فإذا أصبحوا أمنوا ، فكان أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه يقول : لقد خفنا على الذرارى بالمدينة من بنى قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان . ولقد كنت أوفى على سَلْع فأنظر على بيوت المدينة فإذا رأيتهم هادين حمدت الله عز وجل ، فكان مما رد الله به قريظة عما أرادوا أن المدينة كانت تُحرس .

ولكن يبدو أن حُيَياً لم يبعث إلى قريش أو إلى غطفان بشىء ، وإنما هو قطع الحلف وبادى بالعداوة ليجد نفسه فى أشد الخوف من المسلمين . وقد حاول رئيس من رؤسائهم وهو نَبّاش بن قيس أن ينوش أطراف المسلمين ، فخرج بالليل فى جماعة من قومه ، فاصطدموا بقوة من قوات الحراسة تحت قيادة سلمة بن أسلم بن حُرَيش ، فردَّهم على أعقابهم فانجحروا فى حصنهم وجعل المسلمون يطوفون حول الحصن ورعب اليهود وخافوا البيات ، «وهدموا قَرْنى بئر لهم وهوّروها (هدموها) عليهم ، فلم يقدروا أن يطلعوا من حصنهم وخافوا خوفاً شديداً »[1] .

الأحزاب أمام الخَنْدق :

وضاعت على قريش هذه الفرصة كما ضاع غيرها ، لأن القرشيين لم يجتمعوا مع حلفائهم ويرسموا خطة للعمل ، بل إنهم لم يحسنوا توقيت قدومهم ، فقد كان الوقت ربيعاً (أبريل ٦٢٧) وكانت زروع المدنيين وكلها شعير وتبن على وشك النضج ، فسارعوا وحصدوها وأدخلوها مدينتهم دون خسارة ، وتركوا الأرض خارج المدينة بلقعاً ليس فيه غَنَاء كبير ، ثم إنهم إذا جاءوا هم وحلفاؤهم عسكروا كلهم عند مدخل المدينة الشمالى الغربى من طريق التجارة ، وهو المدخل التقليدى ، وضربوا

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٦٢ .

معسكراتهم بعضها إلى جوار بعض من الغابة إلى العقيق ، معوِّلين على أن تكون حربهم حرب غارات ، وعندما وجدوا الخندق بُهِتوا ولم يعرفوا ماذا يصنعون ، ولم يكونوا إلى ذلك الحين يعرفون كيف يرسمون خطة قتال ، إنما هى المبارزات والغارات والكر والفر .

ومن الواضح أن الخندق أفسد عليهم كل شىء ، فوقفوا بعيداً عنه يحاولون اقتحامه فى محاولات فردية أو فى جماعات صغيرة ، وتلاشت القيادة وضاع الحزم ، وأصبحت الحملة الضخمة مجرد مظاهرة لا طائل وراءها ، وفيما يلى نص أورده الواقدى صوَّر لنا حالة قريش وأحلافها أثناء هذه الحملة ، وهو وصف يدل على أن القرشيين إلى ذلك الحين لم يكونوا يعرفون من شئون الحرب فوق ما يعرف غيرهم من بدو الصحراء ، وتلك فى الحقيقة هى صورة قريش وقوتها العسكرية ، وقد كانت كافية ومعقولة لو أن قريشاً خرجت لتلقى جماعة من البدو أمثالها ، كما كانت الحالة فى أيام العرب السالفة ، ولو لم تكن القوة التى ذهبت قريش وأحلافها للقضاء عليها قوة المدينة بعقليتها الجديدة ، ونظرتها الجادَّة إلى الحياة ، وقيادتها الحكيمة السليمة ، وإيمانها القوى ، ونظامها الذى لم تعرفه الجزيرة قبلاً .

لو لم يكن هذا كله لخرجت قريش وأحلافها بالنصر الذى أرادوا ، وقوة قوامها ١٠٠٠٠ مقاتل منهم نيف وألف فرس ومعهم نحو الألفى بعير لم تكن بالقوة الهينة بمقاييس العصر الجاهلى ولكنها كانت أهون شىء عندما واجهت المدينة ، وهذه وحدها ملاحظة تدل على أن الصراع لم يكن بين الأحزاب وخصوم لهم ، بل كان فى حقيقته صراعاً بين عصر ولَّى وفات بكل نظمه وقيمه ومنابعه وعقليته وعصر جديد يختلف عنه من كل ناحية .

وهذا الذى تبيَّنه القرشيون وسيُعبِّر عنه أبو سفيان فى خطاب أخير يوجهه إلى رسول الله ﷺ قبل الانسحاب بذيول الهزيمة ، وخطاب أبى سفيان هذا إرهاص بما سيتبينه هرقل بن هرقل عندما يواجه العرب بقوات الروم التى حطم بها قوى الساسانيين مرة بعد أخرى ، ولكنه وقف عاجزاً أمام المسلمين ، فقد انسحب هزيماً حطيماً من الشام وهو يقول : وداعاً يا بلاد الشام ، وداعاً لا لقاء بعده .

أما النص الذى أشرنا إليه فهو كما يلى نقلاً عن الواقدى ، وسنقسمه إلى فقرات بحسب موضوع كل فقرة منه :

١- « قالوا : وكان القوم جميعاً وافوا الخندق من قريش وسليم وغطفان وأسد[١] عشرة آلاف ، فهى عساكر ثلاثة ، ويحتاج الأمر إلى أبى سفيان .

٢- فنزلت قريش برومة ووادى العقيق فى أحابيشها ومن ضوى إليها من العرب .

وأقبلت غطفان فى قادتها حتى نزلوا بالزغابة إلى جانب أُحُد[٢].

٣- وجعلت قريش تسرّح ركابها فى وادى العقيق فى عِضاهِه ، وليس هناك شىء للخيل إلا ما حملوه معهم من علف ، وكان علفهم الذرة .

٤- وسرَّحت غطفان إبلها إلى الغابة فى أثلها وطرفائها فى عضاه الجُرف .

٥- وقدموا فى زمان ليس فى العِرْض [٣] زرع ، فقد حصد الناس قبل ذلك بشهر . فأدخلوا حصادهم وأتبانهم . وكانت غطفان ترسل خيلها فى أثر الحصاد - وكان خيل غطفان ثلاثمائة - بالعِرض ، فيمسك [٤] ذلك من خيلهم ، وكادت إبلهم تهلك من الهزال . وكانت المدينة ليالى قدموا جديبة »[٥] .

وغالب الأمر أن قريشاً وأحلافها قدَّروا على سنن الجاهليين فى حروبهم أنها غارة يوم أو يومين على الأكثر ، فلما وصلوا فوجئوا بالخندق ، ووجدوا أنفسهم أمام مشكلة عسكرية لا عهد لهم بها ، ولو أن قيادتهم كانت حكيمة لكانت لها من أول الأمر عيونها التى تُبلِّغها بأحوال المدينة وما يجرى فيها ، وكان لديهم متسع من الوقت

---

(١) أسقط الواقدى هنا بنى مرة الذين ذكرناهم مع أنه سبق ورجح أنهم حفروا الخندق مع الأحزاب وإن كان رجال بنى مرة يزعمون أن قائدهم الحارث بن عوف المرى رجع بقومه إيماناً منه بأن العرب لن تغلب محمداً ﷺ على ما ذكرناه ويذكر الواقدى تأييداً لحضور بنى مرة أن حسان بن ثابت هجاه بشعر ثم أضاف مؤيداً حضورهم . « فكان هذا أثبت عندنا أنه شهد الخندق فى قومه ، ولكنه كان أمثل تقية من عيينة » (مغازى : ٢/ ٤٤٤) .

(٢) رومة هى بئر رومة وإلى شمالها زغابة وإلى جنوبها الغابة ووادى العقيق ، وكل هذه مواضع شمال غربى سهل المدينة فما يلى المدخل من الطريق التجارى إلى السهل .

(٣) الجرف هى الأرض الممتدة من مخرج سهل المدينة إلى أُحُد ، ويلى ذلك العِرْض وهى المساحة المزروعة حتى قرب جبل أحد ، وسطح أحد يسمى الوطاء .

(٤) أى : يسد من رمق الخيل ويمسكها من الموت .

(٥) الواقدى : مغازى ٢/ ٤٤٤ .

لذلك ، فإن المسافة من مكة إلى المدينة لم تكن لتُقطع فى تلك الأيام - بالنسبة لجيش كبير كهذا - فى أقل من عشرة أيام ، فكان فى إمكانهم أن يستعلموا عن أمر الخندق فى أى مرحلة من مراحل الطريق .

وحتى لو أنهم وصلوا ووجدوا الخندق ودرسوا الموقف ، لم يكن بهم بأس بالعودة والتريث للتدبير والاحتشاد للوضع الجديد ، ولكن كبرياءهم وغرورهم وجهلهم كل هذه أضلَّتهم ، فوقفوا أمام الخندق حائرين ثم حاولوا اقتحامه فرادى مرة بعد مرة، ومضت الأيام ونفدت الأقوات على غير طائل .

والمسألة لم تكن فى الحقيقة مسألة الخندق ، فإن عرض الخندق كان - كما تقول النصوص - بسطة ، والبسطة طول قامة رجل ، ومهما قلنا فيه فهو متران ، وقد كانت فيه فى أول الأمر أجزاء أقل من ذلك عرضاً ، فعاد عليها المسلمون يوسعونها ، وإنما المسألة هنا كانت مسألة القيادة واليقظة والبديهة وروح القتال والفداء . فبينما نظم المسلمون أنفسهم تنظيماً محكماً : فهناك قوة رئيسية عند قبة الرسول فى لحف جبل سلع من شماله - وهى مركز قيادة المسلمين - يقودها رسول الله ﷺ يساعده عباد بن بشر فى الغالب وسعد بن أبى وقاص أحياناً ، وهناك فِرَق يقودها رجال ذوو بسالة وصدق من أمثال : محمد بن مسلمة ، وزيد بن ثابت ، وأسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ ، وهناك فرقة إنجاد سريعة دائمة مستعدة للتدخل فى أى وقت وأى موضع ، يقودها سلمة بن أسلم بن حريش .

وهناك شباب مستعد للفداء يبعثه الرسول ﷺ فى عاجل أمره ، مثل خوات بن جبير الذى كلفه الرسول بأن يستطلع أمر بنى قريظة ليلاً بعد أن نافقوا ، فلم يكتف بما أمره به الرسول ، بل يقتل الحارس الذى لقيه على حال من الفجاءة والغِرَّة حتى يصبح الرجل وقد وُجِىء جنبه فى الليل ويصيح : السبع ! يحسب أن وحشاً نهش كبده . ويظفر المشركون مرة بموضع متضايق من الخندق تطفره خيلهم ويحاولون ذلك فيرميهم أسيد بن حضير وأصحابه بالنبل والحجارة حتى يجهضوهم ، ثم يستدعى الرسول سلمان الفارسى ويوسعون ذلك الموضع حتى يستوى مع بقية الخندق ولا تعود خيل المشركين تستطيع أن تطفره أى تعبره قفزاً .

وفى إحدى مناسبات المراماة يصاب سعد بن معاذ بسهم فى أكحله ، رماه به رامٍ نابه من رماة قريش هو حبان بن العرقة فما يبالى سعد بن معاذ ، ويمضى فى القتال ، وتلك هى الإصابة التى أودت بحياته بعد القضاء على بنى النضير .

وتطفر خيل للمشركين فوق الخندق فلا يراع المسلمون قط ، ويبرز على بن أبى طالب فيقتل عمرو بن عبد ودّ فارس قريش ، ويفر الباقون فزعين حتى ليسقط نوفل ابن عبد الله فى الخندق فيقتله المسلمون رمياً بالحجارة . هذا وكان فى العابرين فرسان مثل عكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب فلا يثبتون للمسلمين ساعة حتى يُولُّوا الأدبار غير مصدِّقين بالنجاة .

وهناك رواية يرويها الواقدى ويرددها كاتبه محمد بن سعد ، يُفهم منها أن قادة المشركين كانوا يتناوبون قتال المسلمين . كل واحد يوماً ، ورواية ابن سعد هنا « وكان المشركون يتناوبون بينهم ، فيغدو أبو سفيان بن حرب فى أصحابه يوماً ، ويغدو خالد ابن الوليد يوماً ويغدو عمرو بن العاص يوماً ، ويغدو هبيرة بن أبى وهب يوماً ، ويغدو عكرمة بن أبى جهل يوماً ، ويغدو ضرار بن الخطاب الفهرى يوماً ، فلا يزالون يُجيلون خيلهم ويتفرقون مرة ويجتمعون أخرى ويناوشون أصحاب رسول الله ﷺ ، ويقدمون رماتهم فيرمون » .

وبقية هذه الرواية عند الواقدى : « حتى عظم البلاء ، وخاف الناس خوفاً شديداً، ويقدمون رماتهم وكان معهم رماة : حبان بن العرقة ، وأبو أسامة الجشمى »[1] ، ولم يحدث أن أجمعوا أمرهم وهجموا هجمة واحدة فطفروا الخندق وقاتلوا المسلمين بالسيف إلا فى المرة التى ذكرناها والتى قُتِل فيها عمرو بن عبد ود ، قتله على بن أبى طالب . وكان عمرو فارساً لا يُشَق له غبار كان يستصغر علياً يطلب لقاء أبى بكر أو عمر ويسميهما شيخى قريش ، وهى تسمية غريبة نسمع بها أول مرة ، فيأبى علىٌّ إلا أن يلقاه ويقول له الفارس المشرك إنه يكره أن يقتله فيكون رد علىٌّ : ولكنى أنا أحب أن أقتلك ! ويقتله .

وفى هذه الحالات كلها ترى رسول الله ﷺ دائماً فى مواجهة العدو على فرسه وعليه

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٦٨ .

الدرع والمغفر آية فى البسالة وثبات الجنان ، فلا يجرؤ واحد من الكفار أن يُصوِّب إليه سهماً لعظيم هيبته ، ويراه أصحابه على هذه الهيبة التى تروع النفس فيزدادون استبسالاً .

ويريد رسول الله ﷺ أن يقصر فترة الحصار ، فهو يرى أن قريشاً قد انخذلت وما هى بصانعة شيئاً ، ولكنها تطاول تحاشياً للارتداد دون نتيجة ، ولكن غطفان بدو وهم لا يكترثون للبقاء تجاه الخندق فى خيامهم ، فهم هكذا فى بلادهم ، ويعرف الرسول أن رجلاً مثل عيينة بن حصن يقاتل فى سبيل المال ، إذ لا إيمان عنده ولا مأرب فى نفسه غير المغنم ، ويريد الرسول أن يشترى راحة أصحابه بشىء من عَرَض الدنيا ، فقد تعبوا من طول القتال والسهر والحراسة والجوع والبرد .

ويذهب الواقدى إلى أن الرسول بعث من يأتيه بعيينة بن حصن ، فيأتى ذلك الأعرابى المراوغ (دون أن يبلغ حلفاءه وربما كان معه الحارث بن عوف شيخ بنى مرة) ، فعرض عليهما ثلث ثمر المدينة على أن ينصرفوا عن الحصار تاركين قريشاً ومن معها . ولكننا عندما نمعن النظر فى الخبر نستبين من سياقه أن محمداً ﷺ لم يرسل إلى هذين الأعرابيين ، ولكن كانا هما اللذين سعيا إليه يعرضان عليه الانصراف عن الحصار إذا أعطاهما الرسول ثلث تمر المدينة (لهذه السنة) .

والخبر كما يرويه الواقدى غير مقبول لأن عادة رسول الله ﷺ لم تَجْر بمساومة عدو على الانصراف مقابل مال أو طعام ، ثم إنه لم يكن ليقوم بشىء من ذلك إلا بعد مشاورة أصحابه ، وخاصة الأنصار ، لأنهم أصحاب زروع المدينة ونخلها وتمرها ، والذين يوردون مثل هذا الخبر يقولون فى رواياتهم عن أن رسول الله ﷺ كان رئيساً مطلقاً للمدينة يتصرف فى شئونها وأموالها كما يرى ، وذلك غير صحيح ؛ لأنه لم يتصرف فى أى أمر من أمور الجماعة إلا فى حدود أنه نبيها ورسولها وهاديها ، ولا يتصرف فى أمر من أمورها إلا بحسب ما يرتضيه أهلها بعد مشاورة وتراضٍ ، وبقية الخبر – حتى برواية الواقدى – تؤيد ما نقول .

والذى نراه ويتفق مع سير الحوادث هو أن يكون عيينة بن حصن هو الذى سعى للقاء رسول الله ﷺ ليفوز منه بشىء بعد أن رأى أن حلفاءه من الأعراب لم يصلوا

ولن يصلوا إلى شيء ، وأنهم لابد منصرفون عن قريب ، وكان عيينة عمره كله بدوياً خفيفاً سريع التصرف لا يكاد يفكر إلا فى مغنم مادى سريع يصل إليه ، وما كان رسول الله ليستدعى هذا الرجل ويعرض عليه شيئاً خاصاً ، وقد رأينا أن غطفان لم يكن لها إلى الآن دور يُذكر فى الحصار أو القتال ، وقد أدَّتْ حكمة رسول الله ﷺ وتماسك أهل المدينة إلى الكشف عن حقيقة غطفان ووزنها فى مثل هذا الصراع الدائر، ربما كانت غطفان تستطيع أن تفعل شيئاً فى ظروف الصراع القبلى فى شبه الجزيرة العربية ، ولكن الموقف الراهن كان يتخطى كل شيء عرفته غطفان أو عيينة بن حصن والحارث بن عوف . وسنرى بعد قليل أن غطفان أقبلت ثم انصرفت ، وكأنها لا أقبلت ولا انصرفت .

نقول إذن - إذا كان ولابد أن نضع هذا الخبر موضع الاعتبار - ذلك الشيخ القبلى عندما أحس أن الهجوم على المدينة لم يؤد إلى شيء ، سارع إلى المدينة أملاً فى أن يحصل من أهلها على شيء فى مقابل انصرافه ، وقد رأى رسول الله ﷺ أن يكون كلامه أمام أنصاره جميعاً وكان ذلك . ورفض أهل المدينة بلسان أسيد بن حضير وعباد بن بشر وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، وعلى أيديهم لقى عيينة ما يكره وعاد أدراجه بأقل من خُفَّى حنين ، لأن حنيناً لم يجر عليه أكثر من العودة بلا جدوى ، أما عيينة فقد عرف قدر نفسه وعاد إلى قومه يتمطى يجر أذيال المهانة والشعور بالصَّغَار .

وفى بقية الخبر ملاحظات ولمحات تزيدنا بصراً بما نحن بصدده من التعريف بموقف قريش من الإسلام ، ووضع قريش بين الأعراب بعد خمس سنوات من صراعها مع أمة المدينة . قال الحارث بن عوف يخاطب صاحبه عيينة : « ما حضرتُ إلا كرهاً لقوم غلبونى وما مقامنا بشيء ، مع أن قريشاً إن علمت بما عرضنا [1] على محمد عرفتْ أنَّا قد خذلناها ولم ننصرها ! » قال عيينة : « هو والله ذلك ! » ، وفى سياق الحديث يقول عيينة : « إنَّا والله ما جئنا ننصر قريشاً ، ولو استنصرنا قريشاً ما نصرتنا ، ولا خرجت معنا من حَرَمِها ، لكن كنت أطمع أن نأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذِكْر ،

(١) هذا يؤيد ما قلناه من أن عيينة هو الذى قصد رسول الله ﷺ ليعرض عليه أن ينصرف مقابل شيء من تمر المدينة .

مع ما لنا فيه من منفعة الغنيمة ، مع أننا ننصر حلفاءنا من اليهود فهم جلبونا إلى ما ها هنا » .

قال الحارث : « قد والله أبت الأوس والخزرج إلا السيف . والله لتقاتِلُنَّ عن هذا السعف ما بَقى منها رجل مقيم . وقد أجدب الجَنابُ وهلك الخف والكُراع » ، قال عيينة : « لا شيء » فلما أتيا منزلهما جاءتهما غطفان فقالوا : « ما وراءكم ؟ قالوا : لم يتم الأمر . رأينا قوماً على بصيرة وبَذْل أنفسهم دون صاحبهم ، وقد هلكنا وهلكت قريش ، وقريش تنصرف ولا تكلم محمداً ، وإنما يقع حَرُّ محمد ببنى قريظة . إذا ولَّينا جثم عليهم فحصرهم جمعه حتى يعطوا بأيديهم ، قال الحارث : بُعْداً وسُحْقاً ، محمد أحب إلينا من اليهود »[1] .

وهذه المقتبسات تكشف لنا عن كثير من حقائق الموقف خارج المدينة بما لا يحتاج منا إلى تعليق أو زيادة ، ولا معنى هنا لأن نشير إلى الخبر الطويل الذى تورده المراجع عن نعيم بن مسعود الأشجعى وما كان له من دور قصصى فى حرب الأحزاب عن المدينة ، فما كانت المدينة بحاجة إلى توسط هذا الرجل ، فقد كانت قريش استبانت ألَّا فائدة فى استمرار الحصار ، واستقر عزمها على العودة أدراجها ، وكانت غطفان قد سبقتها إلى ذلك كما رأينا .

ولكننا نخرج من الخبر بأن قريشاً وحلفاءها خسروا المعركة حتى قبل أن تهب الرياح . ولقد اشتد بهم البرد مع أن الوقت كان فى شهر أبريل ، ولكن ذلك كثير الحدوث فى الليل ، ثم هبت رياح جعلت تقتلع خيامهم وتطفىء نيرانهم حتى صعب عليهم إيقاد النيران ، وتلفتت قريش ذات صباح فإذا غطفان وبنو سليم قد انصرفوا ، ويبدو أن الأعراب تفاهموا على ذلك دون علم قريش ، وكان الرسول ﷺ قد توقع رحيل الأعراب بعد أن رفض أن يجيب عيينة بن حصن إلى ما سأل ، فأرسل رجلاً من أصحابه هو حذيفة بن اليمان ليستطلع أمرهم ، وانصرف هو إلى الصلاة ودخل حذيفة معسكر الأحزاب : « وإن الريح تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقِر لهم قراراً ولا بناء » ثم رأى حذيفة كيف أقلعت الأعراب من السَّحَر « ثم مضوا فلحقوا الأنفال والعسكر مع ارتفاع النهار بملَّل ، فغدوا إلى السيالة » .

---

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٧٩ - ٤٨٠ .

وكانت غطفان لما ارتحلت «وقف مسعود بن رخيلة فى خيل من أصحابه ، ووقف الحارث بن عوف فى خيل من أصحابه ، ووقف فرسان من بنى سليم فى أصحابهم ، ثم تحملوا جميعاً فى طريق واحدة وكرهوا أن يتفرقوا حتى أتوا على المِرَاض ، ثم تفرقت كل قبيلة إلى محالها - رملل والسيالة قرب المدينة فى الطريق منها إلى مكة ، أما المراض فليست على الطريق وهى تقع على ستة وثلاثين ميلاً بناحية الطرف ، وهى على الطريق إلى نجد - ، فكأن أولئك الأعراب ساروا معاً حتى أصبحوا بمبعدة من المدينة ودخلوا فى رمالهم فتفرقوا ، وقد فعلوا ذلك خوفاً من قريش فى الغالب ، ولعلهم خافوا أن يكون بينهم وبين القرشيين مشادة وتلاحٍ ، وربما ما هو أسوأ فانصرفوا متسللين .

وعلى أثر ذلك قرر أبو سفيان الرحيل ، فدعا أصحابه بالرحيل ، وقال لهم إنهم لم يجدوا عوناً من قريظة ، ووقع بينهم شر ، « وقد لقينا من الريح ما ترون ، والله ما يثبت لنا بناء ، ولا تطمئنُّ لنا قِدْر ، فارتحلوا فإننى مرتحل » ولم يعجب ذلك عكرمة بن أبى جهل فقال له : « إنك رأس القوم وقائدهم ، تقشع وتترك الناس ؟ فاستحى أبو سفيان ، فأناخ جمله ونزل عنه . وأخذ بزمامه وهو يقوده وقال : ارحلوا ! قال : فجعل الناس يرتحلون وهو قائم حتى خَفَّ العسكر ، ثم قال لعمرو بن العاص : يا أبا عبد الله ، لابد لى ولك أن نُقيم فى جريدة من خيل بإزاء محمد وأصحابه ، فإنَّا لا نأمن أن نُطْلَبَ حتى ينفذ العسكر فقال عمرو : أنا أقيم ، وقال لخالد بن الوليد : ما ترى يا أبا سليمان ، فقال : أنا أيضاً أقيم ، فأقام عمرو وخالد فى مائتى فارس ، وسار العسكر إلا هذه الجريدة على متون الخيل » [1] وكانت غطفان وبنو سليم وبنو مرة قد رحلوا .

وقبل أن ينصرف أبو سفيان مع جماعة الفرسان التى بقيت معه لتحمى ظهور المشركين ، رأى أن يكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً . وقد أورد لنا الواقدى نص الكتاب ، ثم أورد بعد ذلك زيادة فى كتاب أبى سفيان إلى رسول الله نسبها إلى رجل يسمى إبراهيم بن جعفر ، وهذا أسندها إلى أبيه ، ولسنا نجزم بصحة النصَّين ، ولكنهما أياً كان موقعهما من الصحة يصوران حالة الحيرة والغيظ والشعور بالهزيمة

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٩٠ .

الذى استولى على رئيس قريش عندما تبين أن الفرصة التى طالما عوَّل عليها قد أفلتت من بين يديه ، وأنه يعود إلى مكة بغير شىء .

أما ما كتب به إليه رسول الله ﷺ فلا نرى أن يصح وهو لا يشبه ما يصدر عنه فى مثل هذه الظروف ، فما كان رسول الله بالذى يتشفى أو يهدد ، وإنما كان رأيه فى مثل هذا الظرف أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإذا كان هناك موضع للإشعار بالقوة فيكون النص على قوة الله سبحانه ، فهو الذى يكتب لدينه ولرسوله النصر ، ويقضى بحوله على الأوثان .

وإليك ما كتب به أبو سفيان وأرسله مع أبى أسامة الجُشَمِى . قال الواقدى : حدثنا موسى بن محمد بن إبراهيم ، عن أبى وجزة ، قال : لَـمَّـا مَلَّت قريش المقام ، وأجدب الجناب ، وضاقوا بالخندق ، وكان أبو سفيان على طمع أن يُغير على بيضة المدينة ، كتب كتاباً فيه :

« باسمك اللهم .

فإنى أحلف باللات والعُزّى ، لقد سِرْتُ إليك فى جمعنا وإنَّا لا نريد ألَّا نعود عنك أبداً حتى نستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى ، مَنْ علَّمك هذا ؟ فإنْ نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أُحُد تُبقر فيه النساء»[1] .

وبعث بالكتاب مع أبى أسامة الجشمى .

وأما رد رسول الله ﷺ وهو رد نستبعد صدوره عن الرسول ، فهو بحسب رواية الواقدى :

« من محمد رسول الله إلى أبى سفيان بن حرب ، أما بعد ، فقديماً غرَّك بالله الغَرُور أمَّا ما ذكرت أنك سرت إلينا فى جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمرٌ ، الله يحول بينك وبينه ويجعل لنا العافية حتى لا تذكر اللات والعزى . وأما قولك : من علَّمك الذى صنعنا من الخندق ، فإن الله تعالى ألهمنى ذلك لما أراد من

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٩٢ .

غيظك به وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم تُدافعنى بالراح ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهُبل ، حتى أذكِّرك ذلك »[1] .

ويضيف الواقدى بعد ذلك زيادة لا معنى لها منسوبة إلى من يسمى إبراهيم بن جعفر عن أبيه ، وسياقها يدل على أنها إكمال لخطاب أبى سفيان إلى رسول الله ﷺ : «ولقد علمت أنى لقيت أصحابك بأحياء وأنا فى عير لقريش فما حصَّ أصحابك منا شعرة ورضوا بمدافعتنا بالراح ، ثم أقبلت فى عير قريش حتى لقيت قومى ، فلم تلقنا، فأوقعت بقومى ولم أشهدها من وقعة ، ثم غزوتكم فى عقر داركم فقتلتُ وحرقت - يعنى : غزوة السويق - ثم غزوتك فى جمعنا يوم أُحُد ، فكانت وقعتنا فيكم مثل وقعتكم بنا ببدر ، ثم سِرْنا إليكم فى جمعنا ومَنْ تألب إلينا يوم الخندق فلزمتم الصياصى وخندقتم الخنادق »[2] .

وهذه الزيادة بادية الافتعال ، فإن عيراً لقريش لقيت المسلمين عند موضع يسمى أحياء وعلى المشركين أبو سفيان ، وكان ذلك فى سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ وكانت فى شوال سنة ١هـ/ أبريل ٦٢٣م . وقد كانت اليد العليا فيها للمسلمين ، فهى السرية التى رمى فيها سعد بن أبى وقاص بقوسه فأصاب كثيراً من أصحاب أبى سفيان ، ولم يكن بين الجانبين إلا ذلك ، وموضع أحياء قريب من بطن رابغ ، ثم يشير أبو سفيان بعد ذلك إلى بدر ثم إلى أُحُد ، وغريب منه أن يشير إلى الخندق بقوله : ثم سرنا إليكم فى جمعنا ومن تألب إلينا يوم الخندق ، لأن تسمية يوم الخندق لم تكن إلا بعد ذلك بزمن .

على أى حال ، انتهت محاولة قريش حشد أكبر قوة تستطيعها وجمع من يتيسر لها جمعه من أحلافها إلى فشل ذريع ، ولم يكن سبب الفشل كما قلنا هو الخندق ، فإن الخندق فى ذاته لا يمنع العدو منعاً حاسماً . إنما هو كان عاملاً معطِّلاً فحسب ، ولقد عبرته خيل المشركين أكثر من مرة فما استطاعت أن تفعل شيئاً ورُدَّت على أعقابها بخسائر ، إنما الأهم من الخندق هى تلك الروح التى كانت أمة المسلمين تقاتل بها عن

(١) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٩٢ - ٤٩٣ .
(٢) الواقدى ، مغازى : ٢/ ٤٩٣ .

نفسها ثم حكمة القيادة ويقظتها ، ففى أثناء مدة الحصار ما بين عشرة أيام وعشرين - لم نشهد لأبى سفيان أىَّ أثـر ، بينما نرى رسـول الله ﷺ فى كل حين ، فهو يقظ مبـادر لا تغفل عينه لحظة ، وهو لا ينام ساعة حتى ينهض ويبرز إلى الميدان وعينه على كل طرف من أطراف المدينة وخندقها ، وما من مرة شد المشركون على الخندق وبدا الخطر إلا كان الرسول بنفسه مسارعاً إلى الموقف يتلافاه خيفة ولا يعود ليصيب شيئاً من الراحة إلا بعد أن يرد المهاجمين على أعقابهم .

والخندق هنا ما كان إلا عقبة أفسدت خطط المشركين ولكنهم لو كانوا على عزم صادق لعبروه ، ولعلهم لو عبروه لهلكوا على أيدى المسلمين فى أزقة المدينة ، فقد رأينا بذلهم وسرعتهم إلى القتال وبسالتهم فيه ، ولقد انقلبت بنو قريظة على المسلمين وليس بينهم وبين المسلمين خندق فهم يستطيعون أن يتحركوا ، حتى كان المسلمون هم الذين ساروا إليهم وأخذوهم باليد .

إنما يهمنا أمر الخندق هنا لأنه تجديد فى فن القتال عند العرب تقبَّلته أمة المدينة من عضو من أعضائها ونفذته على أحسن ما يكون التنفيذ ، وسلمان الفارسى الذى نقل هذه الفكرة إلى المسلمين أتى بها من تجارب قومه الفرس ، وكانت قريش متصلة بالفرس فكيف لم تعرف الخنادق ؟ لم تعرفها لأنها كانت جماعة جمد تفكيرها وتوقف عندما ابتكر لها المؤسسون الكبار الذين أقامـوا صرحها وآخرهـم عبد المطلب بن هاشم ، وعندما أتاهم رسول الله ﷺ بالدين الجديد والفكر الجديد والعصر الجديد جمدوا مكانهم ولم يستطيعوا حراكاً .

ويصدق عليهم هنا قول الله سبحانه وتعالى فى سورة الشعراء مُصوِّراً جمود الجامدين والتزامهم ما وجدوا عليه آباءهم : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)** ﴾ [الشعراء] .

إن القرآن الكريم يتحدث هنا عن الجمود الدينى ، عن وقوف الجماعة عند مستوى فكرى لا تتعداه لأنها تعجز عن ذلك ، وهذا هو الجمود الحضارى أو التحجر petrif-icotion الذى يتحدث عنه المؤرخون ، وآرنولد توينبى يتحدث حيناً عن الحضارات

المتحجرة petrified civilizationes وهى غير الحضارات البائدة extinct civiliza-tiones لأن الحضارات البائدة لا تعود إلى الحياة ، أما المتحجرة فهى تعانى مما يسمى بالركود الثقافى cultural lag ، وهو جمود يصيب الجماعات لتوقُّف فكرها عن التطور ووقوفه عند وضع تتحجر عنده ولا تتعداه ، وهذا لا يمنع أن يتفكك التحجر وتدب الحياة فى الذهن المتبلد ، وهو ما كان رسول الله ﷺ يحاوله ، وقد صبر صبراً جميلاً على القرشيين حتى تمكن فى النهاية من إيقاظ أذهانهم وقلوبهم من السبات الذى استراحوا إليه .

وغريب فى الأمر أن يكون أبو سفيان هو من أوغل رجال قومه فى الوثنية الجاهلية، كان هو أول من تحرك ذهنه وصحا فرأى بصيصاً من النور الجديد ، ولكنه لم يره بعين القلب الواعى ، بل بعين الذهن الصاحى . وكان أبو سفيان أذكى رجال قومه دون شك ، لأنه أدرك وهو عائد يجر أذيال الخيبة من حملته الكبرى على الخندق ألا سبيل إلى التغلب على محمد وأمة الإسلام ، وأن نجاة قريش من الهلاك مرهون بقدرتها على التفاهم مع أمة المدينة ، وقد قلنا هنا ، محمداً دون أن نشفعه بالتصلية ؛ لأننا أردنا أن نصور فكر أبى سفيان من ناحية محمد ، فإن أبا سفيان استسلم فى النهاية لمحمد ولكنه لم يستسلم لرسول الله حتى بعد الفتح ، ومن المفكرين المسلمين من يرى أن أبا سفيان أسلم ولم يؤمن قط ، وبعضهم يدفع عنه البقاء على الوثنية من جانب التقى ، احتراماً لصحابته للرسول على مذهب الداعين إلى التوقف عن الحكم على الصحابة لِعِظَم مقامهم عند الله سبحانه وتعالى ، فهذا التوقف عندهم عاصمة من قاصمة ، وقد كتب فى هذا المعنى نفر من جلة علمائنا منهم ابن حزم فى رسالة التفضيل بين الصحابة، وأبو بكر بن العربى فى العواصم من القواصم .

لقد كتب واحد من كبار المستشرقين وهو فلهاوزن كتاباً مشهوراً عندهم عنوانه : « محمد واليهود فى المدينة » ، تحسر فى ختامه على مصيرهم وقال : « إنهم لو وجدوا زعيماً من بينهم يقوم لهم بالدور الذى قام به أبو سفيان لقريش لنجوا من الهلاك ، أى لتصالحوا مع الرسول صلوات الله عليه ودخلوا فى جماعته وكتبوا لأنفسهم بذلك

حياة جديدة كما فعلت قريش »[1] ، فلننظر ما الذى فعله أبو سفيان للنجاة بقريش من مصير شبيه بمصير يهود المدينة .

* * *

(١) A. J. Wensinek. Mohammed en de Joden te Medina : Leiden 1928. وهو بالهولندية ، ولكن أجزاء كثيرة منه تُرجمت إلى الفرنسية والإنجليزية .